فيكتور هيجو

الرجل الضاحك

رواية

تقديم ومراجعة

محمد عبد الفتاح

الكتاب: الرجل الضاحك (رواية)

الكاتب: فيكتور هيجو

تقديم ومراجعة: محمد عبد الفتاح

الطبعة: ٢٠٢٢



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

هيجو ، فيكتور

الرجل الضاحك (رواية) / فيكتور هيجو, تقديم ومراجعة: محمد عبد الفتاح – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٤٨٥ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٠٣٤ / ٢٠٢٢

الرجل الضاحك



الرواية والروائي

ولد فيكتور ماري هوجو فى ٢٦ فبراير ١٨٠٢، في بيزنسون بإقليم دوبس بشرق فرنسا، وكان هو الابن الثالث لجوزيف هوجو، الذي كان ضابطًا في جيش نابليون، أما أمه فهي صوفيا تريبوشيه التي كانت ابنة لضابط في البحرية، وكانت الحياة الزوجية لوالديه تواجه بعض المشكلات التي لم يستطيعا التغلب عليها فانفصلا رسميا وهو في السادسة عشرة، وكانت الأم قد سبق أن تركت إقليم دوبس، وعادت إلى بيت أسرتها في باريس مصطحبة الطفل فيكتور وكان يومها في الثانية أخذته والدته للعيش معها في باريس، في حين كان والده يؤدي الخدمة العسكرية، وقد أحب فيكتور باريس وكان يقول عنها "المكان الذي ولدت فيه روحي".

درس هوجو الحقوق، وقبلها درس في الأدب اللاتيني، وفي عام ١٨٢٢ نشر أول ديوان شعري بعنوان "أناشيد وقصائد متنوعة" والذي لقي ترحيبًا ومكافأة من الملك لويس الثامن عشر، وفي العام نفسه تزوج من صديقة طفولته أديل فوشيه؛ واستمر بعدها في كتابات متنوعة بين النثر، والشعر، والدراما، والمقالات السياسية، واشتهر ضمن من أطلقوا على أنفسهم "الكتّاب الرومانسيين"؛ وفي مارس عام ١٨٣١ نشر روايته "أحدب نوتردام"، التي أكد فيها موقفه المناهض لعقوبة الإعدام، وقد لاقت الرواية نجاحًا كبيرا على مستوى العالم، ومنحت هوجو مكانة مهمة في تاريخ الأدب الفرنسي، وتعد هي و "البؤساء" أشهر روايات الأدب الفرنسي، أما دواوينه فمنها: تأملات، أسطورة العصور.. ومن مسرحياته ورواياته: مجنون كرومويل، من أوراق شجر الخريف، الملك يتسلى، الأصوات الداخلية، الأشعة والظلال، عمال البحر، أغانى

الشعب والخشب، الرجل الذى يضحك والعام الرهيب، كذلك كان هوجو رساما متميزا لازالت لوحاته تعرض في المتاحف إلى اليوم. وفي ديسمبر عام ١٨٥١، وبعد أن استولى لويس نابليون على السلطة في فرنسا ونصّب نفسه إمبراطورًا، شارك هوجو في حركة مناهضة له، ولكنها فشلت، فترك فرنسا مع عائلته وعاش في المنفى حتى عام ١٨٧٠؛ وأثناء إقامته في المنفى نشر أعمالًا أدبية كثيرة كان أشهرها "البؤساء"، والتي تتناول جوانب إنسانية بحتة تحدث فيها عن الحب، والحرب، والطفولة المفقودة، ليعود بعدها إلى فرنسا باعتباره أهم أدبائها.

وقد انتخب هوجو نائبًا عن العاصمة باريس في فبراير من عام ١٨٧١، لكنه استقال في مارس بعد وفاة ابنه شارل، وأسس "جمعية الأدباء والفنانين العالمية" وأصبح رئيسًا فخريًا لها في عام ١٨٧٨.

وفي الثاني والعشرين من مايو عام ١٨٨٥ توفي "هوجو" إثر مرض أصاب رئتيه، ودفن تحت قوس النصر، وتمّ تكريمُ ذكراه بوسائل عديدة، لعل من أبرزها وضع صورته على الفرنك الفرنسي.

تشويه البراءة

كتب فيكتور هوجو روايته "الرجل الضاحك"خلال عام ١٨٦٩ أثناء إقامته في منفاه على جزيرة "جيرزي" البريطانية القريبة من السواحل الفرنسية ، وهي آخر رواية كتبها في المنفى. كان الشاعر في عامه الخامس والستين. في ذلك الوقت كان الطفل يشكل جزءًا مهمًا من كتاباته، ولعل القارىء يتذكر أطفال مثل "كوزيت" و"قافروش" في البؤساء.

في "الرجل الضاحك" يروي فيكتور هوجو حكاية الطفل "جوينبلين" المشوه على صورة إنسان ضاحك مع الصغيرة العمياء وحياته في القصور

الانجليزية،ومن المعروف أن هوجو كان مهتما بجماعة تسمى" الكمبراشيكوس" والكلمة أسبانية الأصل تعني تجار الأطفال ، وتطلق على جماعة غريبة من الغجر الرحل أشتهرت في أوروبا في القرن السابع عشر وإرتبط اسمها بالعبودية وتجارة الأطفال.

وكانت الكمبراشيكوس تتاجر في الأطفال دون أن تسرقهم، فكانت تشتريهم سواء من تجار الرقيق الذين خطفوهم أو من الاباء الفقراء الذين كانوا يعتبرون أولادهم سلعة في القرن السابع عشر الموصوف بأنه العصر الذهبي، وكانت تبيعهم بعد أن تجعل منهم مخلوقات مخيفة بغرض الضحك واللهو.. فالناس في ذلك القرن كانوا في حاجة للضحك ، وكذلك الملوك كان لابد من إعداد المهرجين للناس والبهلوان لجلالة الملك. فكان علي الكمبراشيكوس أن يجهزوا أقزامهم في سنٍّ مبكرة... فالطفل المستقيم لانفع فيه ، أما الأحدب فكان تجارة رابحة للضحك واللعب. كان إعداد الأقزام المشوهين فنًا أبدع فيه المربيون.. يأخذون الطفل ويجعلون منه مسخًا ويصنعون المسخ حسب قواعد وفنون تعلموها.. كان التشويه علمًا قائمًا.. كانت تلك الجراحات لصنع المشوهين تتم على شكل واسع ، وهي تصنف إلى عدة أنواع. كان الملوك في حاجة لهؤلاء المشوهين وكان على الجراحين في ذلك الوقت قطع الأطراف وفتح البطون...كان عليهم أن يتعلموا فنهم من الجلادين.

لم يختف الكمبراشيكوس تمامًا في القرن التاسع عشر ، لقد تمكن السنيور "رامون سيلي" من مواصلة مهنته بين عامي ١٨٣٤ و١٨٦٦ ، وكانت قصور إنجلترا في عصر "جاك الثاني" في حاجة إليهم كلما لزم الأمر وكلما رغب الملوك في القضاء على بعض العائلات أو على الأقل بعض فروعها.

لقد تركت تلك الجراحات أثارها على الوجه وبقى الصغار بأرواحهم النقية

فلم يبق في ذاكرتهم سوى أن ثمة رجالا جاءوا لخطفهم ذات يوم ، ثم تم تخديرهم ، ثم شفوا من مرض ما لا يعرفونه... لقد كان للكمبراشيكوس مادة مخدرة تقضي على الألم عرفوا أسرارها... وعن واحد من هؤلاء الضحايا كتب فيكتور هوجو روايته ، حيث يروي حكاية رجل يسعى لاكتشاف سبب تشوه وجهه عندما كان طفلاً، محولاً ملامحه إلى ابتسامة قبيحة.

الضاحك الباكي

تبدأ الرواية في ليلة ظلماء شديدة البرد، وسفينة صغيرة على شاطئ مهجور، فيها خمسة رجال وامرأتين وطفل لا يعي من أمره شيئا ، أذاقوه ألوان العذاب بعد أن شوهوا وجهه، يجهزون السفينة ويركبون البحر بعد أن تخلوا عن الطفل وحيدا لا مؤنس له في وحشته وهو يصرخ بحرقه مناديا لهم حتى تغيب أنوار السفينة، فيعود الطفل الى القرية وهو يخترق أكوام الثلج ، عندها يتناهى الى مسامعه صوت بكاء طفلة تحتضنها امرأه فارقت الحياة ، يحملها فوق همه وجزعه الى القرية ويطرق أبوابها ولا مجيب ، فيسير باتجاه أسفل النهر حيث يجد سفينة مهترئه يعلوها بناء أشبه بالغرفة كان يسكنه فيلسوف متشرد معه ذئبه ، فيتخذونه مأوى ويكون بداية لصراعهم في الحياة.

وقد ظلت الرواية مغمورة لزمن طويل ، وكانت أقل اعمال هوجو شهرة، وقيل أن السبب يرجع لكون هوجو بالغ كثيرا في وصف الأرستقراطية الإنجليزية في عهد الملكة آن، ولكنه تحدث عن الطبقات المسحوقة في المجتمع وسيطرة البرجوازية والتفاوت الطبقي الفظيع بين البشر. لكن فيما بعد نالت الرواية ما تستحق من شهرة واهتمام، فنافست "البؤساء" وتفوقت على "أحدب نوتردام" وغيرهما من الروايات الشهيرة لهوجو.

و"الرجل الضاحك" وعلى رغم من عنوانها الذي يشير إلى رجل ضاحك،

تعتبر من أكثر روايات هوجو مأسوية. فإذا كان بطل الرواية يبدو منذ عنوانها كشخص ضاحك فإن ضحكته إنما هي ناتجة من كون فمه قد شرخ منذ صباه، ليصبح جرحاً أفقياً يمتد بين أذنيه. بمعنى أنه إذا كان شكل فمه يوحي بضحك دائم، فإن وراء هذا المظهر الضاحك مأساة صارخة، وتشويهاً منفّراً مثيراً للرعب، بحيث أن الشخص الوحيد الذي لا يهتم بهذا التشويه وما يثيره، انما هو الصغيرة ديا، التي ستقبل الفتى الضاحك غوينبلين، على علته، لمجرد انها ضريرة لا ترى. ومن هنا فإنها ترى، فيما وراء الوحش، ذلك الانسان الطيب، المظلوم، جوينبلين الحقيقي.

ولعل عدم اعتياد القراء –وقت صدور الرواية –على قراءة مثل هذه النماذج البشرية، وتفضيلهم لأعمال رومانسية تدغدغ مشاعرهم كان سببا لانصرافهم عن الرواية في أول عهدها، فقد كان قبح بطلها الرواية الذي سيفاجئ القارئ وينفره، حتى اللحظة التي يتفاعل فيها، متأخراً بعض الشيء، مع جمال الروح وروعة الأخلاق لدى ذلك الشخص. ولئن كان جوينبلين وديا محور "الرجل الضاحك" فإن من الشخصيات الرئيسة الأخرى أورسوس ذلك الفيلسوف المهرج، الذي ربما جعله هوجو لسان حاله بما أسبغه عليه من رغبته في الابتعاد عن الناس، مقابل ميله لفعل الخير عملياً. ولقد قدمته الرواية لنا، متنقلاً من معرض شعبي الى آخر، جاراً معه ذئبه هومو، القادر على إخافة الناس وإبعادهم حين يشاء، وأيضا اجتذابهم حين يريد. وفي المقابل هناك جوزيان، الارستقراطي الكريه، وباركلفيدرو، رجل الحاشية والبلاط الشرير والذي يحمل بين جانبيه كما يقول لنا هوجو روح أفعى حقيقية.

ومن خلال هذه الشخصيات وصراعها يرسم هوجو صورة واقعية لذلك العالم المتمدن الذي كانت تمثله انجلترا خلال تلك الفترة التاريخية.

والحقيقة أن هوجو حين كتب هذه الرواية، لم يكن مهتماً بالأدب قدر اهتمامه بالسياسة، وبالبحث عن العدل والمساواة بين الناس تطبيقاً لأفكار كانت الثورة الفرنسية قد آمنت بها. ومن هنا نراه يختبئ خلف قناع الرجل الضاحك، كي يقول ما عنده، صانعا القناع الذي يحمل ذلك التشوه الخلقي مؤكداً أن وراء المظهر الوحشي روحاً طيبة، هي الروح الحقيقية للإنسان في أجمل ما يمكن لأعماقه ان تحمل. وتلك هي الرسالة الأساس التي أراد فيكتور هوجو أن يحمّلها لهذه الرواية.

محمد عبد الفتاح

قسوة البشر

في ليلة قارصة البرد من شهر يناير عام ١٦٩٠، وقفت سفينة صغيرة في إحدى الفجوات الصخرية المنتشرة في خليج بورتلاند عند شاطئ إنجلترا الجنوبي، وامتد منها إلى الأرض لوحا خشبيا ليصلها باليابسة، وأخذت أشباح ملتحفة بالظلام تروح وتغدو فوقها.

كانوا ثمانية أفراد بينهم امرأتان وطفل، وقد ارتدوا جميعا ملابس بالية ممزقة، ما عدا واحدًا منهم يبدو من مظهره أنه زعيمهم. أما الطفل فلم يكن يستر جسده سوى سترة بحرية طويلة تدلت حتى ركبتيه وكان حافي القدمين.

انهمك الجميع في نقل صناديق الأمتعة والمؤونة التي كانت ملقاة على الأرض الصخرية.. واشتركت المرأتان والطفل في هذه المهمة. وكانت تبدو عليهم جميعا دلائل التعجل كمن يفرون من اليابسة ويلقون بأنفسهم بين أحضان البحر التماسًا للنجاة من خطر داهم يوشك أن ينزل بهم..

وكان الطفل يناهز العاشرة من عمره.. ولم يكن يلقى من أحد هؤلاء الهاربين المتعجلين رحمة أو حنانًا، بل كانوا يعاملونه بخشونة ويصطدمون به أثناء مرورهم فوق اللوحة الخشبية في غير رفق بطفولته وسنه.

وتم نقل الأمتعة والمؤونة إلى السفينة الصغيرة، واستقرت المرأتان بها.. ووقف القبطان بجوار الدفة بعد أن أشار إلى البحارين الاثنين اللذين تتألف منهما كل بحارة السفينة بالاستعداد.. ولم يبق إلا أن ينتقل الرجال ومعهم الطفل إلى السفينة.

أشار الزعيم إلى رجاله بالتقدم.. فأسرع الطفل لاجتياز اللوحة الخشبية

حتى يكون أسبقهم، غير أن الرجال دفعوه بعنف إلى الخلف، وتسابقوا إلى السفينة، واستقروا بها. وما كاد الزعيم يصل إليها آخرهم حتى ركل اللوحة الخشبية بقدمه فهوت إلى الماء، وبقي الطفل وحده فوق الصخرة، وابتعدت السفينة عنها.

وقف الطفل جامدًا في مكانه محدقا بعينيه، لم يستنجد بأحد. ولم يناده أحد من ركاب السفينة. ومع أنه لم يكن يتوقع هذه النهاية، فقد لزم الصمت ولم تبدر منه كلمة واحدة بينما ابتعدت السفينة في الفجوة، ووصلت إلى مياه البحر المنبسطة.

وفجأة بللت مياه المد قدميه، وهبت ريح قارصة عبثت بشعره فانتفض، وأفاق لنفسه. ألقى نظرة حواليه، فألفى نفسه وحيدًا. لم يكن له حتى هذا اليوم سوى أولئك الذين ركبوا في السفينة وها هم انسلوا وتركوه وحده. ومن عجب أن هؤلاء الذين لم يكن يعرف سواهم كانوا مجهولين منه، لا يدري من هم، وقد أمضى طفولته بينهم وهو يشعر بأنه ليس منهم.

لم يكن معه نقود. وكان حافي القدمين لا يستر جسده سوى تلك السترة التي سلف ذكرها، ولم يظفر حتى بكسرة من الخبز يتبلغ بها.

كان الشتاء قارصًا.. والليل حالكًا. ولا مفر لبلوغ أقرب الجهات المعمورة من قطع أميال كثيرة، وهو لم يكن يدري أين هو، ولا يعرف في الحياة شيئًا سوى أن هؤلاء الذين أحضروه إلى هذه البقعة الموحشة قد تخلوا عنه. وتركوه منبوذًا وهو لم يجاوز العاشرة من عمره.

على أنه لم يلبث أن بسط ذراعيه وتثاءب، وفجأة أدار ظهره إلى الفجوة كأنما استقر عزمه على شيء معين، وأنشأ يتسلق الطريق الصخري المرتفع، وإن كان في الحقيقة يسير على غير هدى، وفي غير وجهة معينة.

كان هذا الطريق ممرًا صخريًا وعرًا متصاعدًا. وأخذ الطفل يتسلق مستعينا بيديه وقدميه. وكلما ارتفع خيل إليه أن القمة تزداد ابتعادًا عنه وبعدًا في الظلام.. وفيما هو يتشبث بأحد الأحجار البارزة خانه الحجر وهوى الاثنان معا.. ولولا أنه صادف في سقوطه غصن شجرة تعلق به لقضي عليه.

عاود الطفل تسلقه الشاق، ووصل أخيرًا إلى القمة، فوثب فوقها.

نظر أمامه. فإذا الأرض تنبسط مقفرة يكسوها الجليد، ولا أثر فيها لمعالم الحياة.

وفي هذه اللحظة لاحت في الجو طلائع عاصفة عاتية..

واختفت السفينة عن نظر الطفل أخيرًا، وهكذا تغلغل الطفل في هذا التيه. وسار إلى الأمام.

كانت إنجلترا في القرن السابع عشر مسرحًا لعصابات مروعة هي عصابات الاتجار بالأطفال، وكان الغرض من هذه التجارة هو الاستيلاء على الأطفال بقصد مسخهم وتشويههم حتى إذا شبوا وترعرعوا جعل منهم الخاطفون مهرجين لإضحاك الناس وتسليتهم.

وكان هناك أخصائيون في هذا الفن، فن المسخ والتشويه، يتناولون ملامح الطفل المخطوف بالتغيير والتبديل بأساليب في نفوس الجماهير. طرق جهنمية يعرفون وحدهم أسرارها، حتى إذا نما الطفل تنكرت معالم وجهه واستحال مسخا يثير منظر الضحك ويبعث الطرب.

وكانت منهم تلك العصابة التي كانت تنسل إلى السفينة (ماتوتينا) في جنح الظلام على ساحل (بورتلاند) تاركة خلفها ذلك الطفل الوحيد الذي كان وجوده معها يعرضها للخطر.. ويعرقل حركاتها.

السفينة

أقلت السفينة (ماتوتينا) عشرة أشخاص، ستة ركاب، بينهم امرأتان، والقبطان والبحاران، وما كادت تبتعد عن الشاطئ حتى زالت معالم الخوف من وجوه الركاب، واستعادوا حريتهم واطمئنانهم.

كان زعيم الركاب رجلًا طويل القامة، قوي البنية، سريع الحركات ومنذ إبحار السفينة لم يستقر في مكان واحد، بل أخذ يتنقل في طولها وعرضها فاحصًا آمرًا ناهيًا. ومع أن وجه السماء كان ينذر بعاصفة، فإن بوادر العاصفة لم تحدث طوال المدة التي استغرقتها السفينة في اجتياز خليج (بورتلاند) وبلوغ المحيط المترامي.. ولذلك استسلم الهاربون للفرح والطرب، وراحوا يضحكون ويغنون، وأخذوا يتكلمون كلامًا هو خليط من الفرنسية والإسبانية والإنجليزية.

ولم يشذ عنهم سوى رجل متقدم في السن أصلع الرأس، وكان يتنقل فوق سطح السفينة بخطوات ثابتة ومشية متزنة.. وبين وقت وآخر كان زعيم العصابة يقترب منه ويهمس بعض الكلمات في أذنه فلا يجيب الكهل إلا بهز رأسه. والواقع أن اثنين من رجال السفينة كانا منهمكين في التفكير العميق.. أحدهما هذا الكهل الذي كان يحدق بنظره إلى السماء والثاني قبطان السفينة الذي كان يدمن النظر إلى الأمواج. كان الكهل واقفًا في مقدمة السفينة لا يحفل بأصحابه ولا باشتداد البرد وهبوب الريح. أما القبطان فقد وقف عند الدفة يديرها بنفسه زيادة في الحذر والاحتياط.

وقال يخاطب الكهل:

– سيدي..

أدار الكهل رأسه وتطلع إلى القبطان دون أن يتحرك من مكانه وقال له: ناديني باسم (الأستاذ).

– سيدي الأستاذ.. أنا القبطان.

فقال الأستاذ: هو ذاك.. أخبرني أيها القبطان. هل عندك آلة القياس الإنجليزية لمعرفة ارتفاع السفينة فوق المياه؟

– لا..

– بغير هذه الآلة يستحيل عليك أن تعرف ارتفاع السفينة بتاتًا.

فقال القبطان: إن الإسبانيين يفهمون هذه الفنون قبل أن يوجد الإنجليز.

–حاذر ألا ينقلب حسابك رأسا على عقب.

– إني لا أغفل لحظة واحدة.

– هل رأيت كم عقدة تقطعها السفينة؟

– نعم، أني فحصت الآن آلة قياس السرعة، وهي تسير بسرعة أربع عقد فرنسية في الساعة.

– وما هي الجهة التي تقصد إليها؟

– إني أتجه إلى خليج أعرفه كائن بين (ليولا) و(سان سباستيان).

– أبذل جهدك لمعرفة عمق الميناء قبل الدخول.

– نعم.. سأفعل هذا بقدر الإمكان.

– احترس من تيارات الهواء.. إن الأولى تخلق الثانية.

– هي عدونا الغادر.

– لا تشتم.. البحر يفهم ما يقال.. اكتف بأن تراقب كل شيء.

– إني لا أغفل عن المراقبة.. إن المد يسير الآن في اتجاه مضاد للرياح.. وسيتحسن موقفنا إذا سارا في اتجاه واحد.

وتكاثف الضباب.. وانتشرت السحابة الزرقاء في الأفق الشرقي والغربي، واضطرب الموج. مضي ربع ساعة، ونظر القبطان إلى حيث كان الأستاذ واقفًا فلم يجد مكانه.

والواقع أنه لم يكد يبتعد القبطان عن الأستاذ حتى اتجه هذا إلى العنبر حيث كان أحد أفراد العصابة جالسًا قرب موقد يطهي الطعام، فجلس الأستاذ على الأرض وأخرج من جيبه محبرة وقلما ومفكرة، وأخرج من المفكرة رقعة من الجلد بسط ظهرها فوق المفكرة، وانهمك في الكتابة. وكانت حركات السفينة تعوق أحيانًا وتضايقه.

وفيما كان الأستاذ يكتب لاحظ الطاهي يتناول بين حين وآخر زجاجة منتفخة ذات مقبضين فيتجرع منها بعض الشراب الذي بداخلها، واسترعى انتباه الأستاذ اسم منقوش على الزجاجة بحروف حمراء. فكف عن الكتابة، وتهجى الاسم بصوت خافت: "هاركانون".

ثم التفت إلى الطاهي قائلًا:

– إني لم ألاحظ هذه الزجاجة من قبل.. هل هي تخص هاركانون؟

فأجاب الطاهي: نعم إنها تخص زميلنا المسكين هاركانون.

فاستطرد الأستاذ: هاركانون. الموجود الآن في السجن؟

– نعم.

– في سجن (شاتام).

– نعم.. هي زجاجته.. إنه اعتاد أن يعلق هذه الزجاجة إلى وسطه دائمًا. كان صديقي الحميم، وإني احتفظ بها تذكارًا له، متى نراه من جديد؟

وتناول الأستاذ قلمه ثانية وبذل جهدًا كبيرًا لإتمام الكتابة التي كان آخذا فيها. وكان يبدو من حركاته أنه يعنى أشد عناية حتى تكون الكتابة واضحة جلية، وتم له أخيرًا ما أراد.

والواقع أنه فعل هذا في الوقت المناسب، فأنه ما كاد ينتهي من الكتابة حتى اهتزت السفينة هزة عنيفة بتأثير اندفاع الموج وتلاطمه. وأخذت تترنح وتتراقص وقد فقدت توازنها.

نهض الأستاذ من مكانه وزحف على قدميه حتى وصل إلى الموقد فعرض السطور التي كتبها للهب حتى جفت، ثم طوي الرقعة الجلدية ووضعها في مكانها داخل المفكرة، وأخيرًا أعاد المفكرة والمحبرة والقلم جميعا إلى جيبه.

عاد الأستاذ إلى سطح السفينة.. كانت الرياح قوية تفيد في أبعاد السفينة عن إنجلترا، حتى أن القبطان لم يتردد في نشر القلوع على سعتها.. وأخذت السفينة (ماتوتينا) تشق طريقها بين الأمواج بأقصى سرعة.. ولم يتمالك الهاربون أن استسلموا للمرح والضحك. وراحوا يهتفون ويصفقون بأيديهم طربا دون أن يفكروا في المستقبل.. أما الأستاذ فإنه لم يلتفت إلى ما هم فيه، واستغرق في أحلامه وأفكاره الخاصة.

واختفت اليابسة عن الأنظار.. وتكاثف الظلام.. وانتشرت فوق الأمواج سحب سوداء.. وأخذ الجليد يتساقط.. وثارت العاصفة عنيفة تنذر بالشر والهلاك.. لكن السفينة قابلت هذا العنف بعنف مماثل.. واندفعت في وجه

العاصفة تشق طريقها كالسهم، وهي في موج كالجبال. وفي هذه اللحظة وقف زعيم العصابة في مؤخرة السفينة في نشوة ظاهرة وطرب متزايد.. وهتف وهو يلوح بمنديله في الهواء:

– نحن أحرار..

فردد الجميع كلمته في حماس ظاهر. وما كادت هذه الكلمات تتلاشى في قلب العاصفة حتى ارتفع صوت رزين من مقدمة السفينة قائلا:

– صمتا.

أدار الجميع رؤوسهم، كان الظلام كثيفا.. ووقف الأستاذ مستندًا إلى السارية كأنه قطعة منها، حتى أنهم لم يميزوه.. بل سمعوا صوته وهو يقول:

–أصغوا.

سكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير، وأرهفوا آذانهم.. وإذا هم يسمعون صوت ناقوس يدق بجلاء في طيات الظلام.

ناقوس الهلاك

قال القبطان ضاحكًا:

– ناقوس لا بأس.. معنى هذا أن اليابسة إلى يميننا.

وهبت رياح عنيفة في هذه اللحظة، وحملت إلى أسماعهم دقات الناقوس واضحة.. فقال الأستاذ:

– إن سماع دقات الناقوس في العاصفة التي تثيرها رياح شمالية غربية هو الهلاك المحقق.. وإليكم التفسير.

إنكم لم تسمعوا الناقوس إلا لأن الرياح تحمل إليكم دقاته أن الرياح تهب من الشمال الغربي، وصخور (أوريني) تمتد في الشرق.. وأنتم تسمعون الناقوس لأنكم في منطقة كائنة بين العوامة وبين الصخور.. والرياح تدفعكم إلى ناحية الصخور.. أنتم في الواقع في جانب العوامة الخطر.. ولو كنتم في الجانب المأمون لما وصل صوت الناقوس إليكم.. فإن الرياح ما كانت تحمل إليكم هذا الصوت.. بل كنتم تمرون قرب العوامة دون أن تفطنوا إلى وجودها.. إننا ضللنا الطريق وهذا الصوت هو نذير الهلاك والفناء.. والآن تدبروا مصيركم.

تناول القبطان بوقه.. وصاح قائلا:

–انزلوا القلوع..! لنتجه إلى الغرب! لنعد إلى أحضان البحر لنقصد إلى العوامة! إلى الناقوس.. لا تزال أمامنا فرصة.

واشترك الركاب مع البحارين في تنفيذ أمر القبطان.. وما هي إلا لحظات حتى أنزلت القلوع، لكن هذه الخطوة زادت موقف السفينة سوءًا، فقد انقضت

عليها الرياح والأمواج بكل عنف وشدة، واجتاحت القلوع وقذفت بها إلى البحر.

تشبث الركاب بالحواجز والألواح وقد أيقنوا من الهلاك. وأخذت دقات الناقوس تتباعد وتخفت شيئًا فشيئًا، ثم تلاشت نهائيًا. فتملكهم رعب شديد ولم يدروا إلى أين يساقون.

وفجأة لمحوا ضوءًا أحمر برز فجأة من أطواء الظلام، فهتفوا في نفس واحد:

– فنار

كان الضوء منبعثا من فنار (كاسكتس)، وإذا كان أولئك الركاب التعساء قد حسبوا لأول وهلة أنهم ناجون.. فقد أدركوا بعد قليل أنهم هالكون. وكانت الرياح تدفع السفينة إلى صخور (كاسكتس) بسرعة، وشعر الركاب بأنهم يسيرون في مياه قليلة العمق.. وسمعوا أصوات الأمواج وهي تندفع عنيفة بين فجوات الصخور، وفي البوغاز الضيق الذي يشقها.. وما هي إلا دقائق حتى لاحت لهم الصخور شاهقة مخيفة في ضوء الفنار.

دنت السفينة من الصخور، وكانت قاب قوسين من الاصطدام بها.. وفجأة قاربوا الصخرة الشمالية المعروفة باسم (بيبلت) حتى أنها حجبت عن أنظارهم سائر الصخور.

مضت لحظات تشيب من هولها الرؤوس.. وأوشكت السفينة والصخرة أن تصطدما. وارتفعت موجة قوية.. فحملت السفينة فوق قمتها. واصطدمت اللوحة بالصخرة.. فصمد الرجال الممسكون بها ولم يتخلوا عنها رغم أن شدة الصدمة كادت تخلع أضلاعهم. وغطى الزبد والرشاش سطح السفينة.. ولما ارتدت الموجة إلى البحر بعيدًا عن الصخرة، كان الرجال يتقلبون في أرجاء

السفينة، لكن السفينة طفت على سطح المياه بعيدًا عن الصخرة فقد احتملت اللوحة قوة الصدمة وزحزحت السفينة بعيدًا عن الصخرة، ولما كانت الأمواج تتدفق سريعة فإنه لم تمض لحظات قلائل حتى تركت السفينة صخور (كاسكتس) خلفها.

واختفى ضوء الفنار شيئًا فشيئًا، ثم تلاشى نهائيًا، وأخيرًا انقطع صوت الناقوس، ولم يبق أمامهم وحولهم سوى الظلام الحالك والعاصفة الهوجاء والأمواج الثائرة.

أمل غارب

اندفعت السفينة ماتوتينا مع الأمواج اندفاعًا أعمى كانت الرياح تديرها في جميع الأنحاء، والأمواج تتقاذفها في عنف وهول. ثم تفتحت أبواب السماء، لا بمطر غزير، بل بعاصفة هائلة من البرد الذي كان يتساقط عنيفًا متلاحقًا فيذهل النفوس ، وكانت الأمواج تغطي السفينة وتزلزل أقدام ركابها التعساء.. وكلما انحسرت موجة عن سطحها خيل إليهم أنها أنشبت مخالبها فيهم وحملتهم معها إلى قاع البحر. ارتموا بأجسادهم فوق السطح، وتشبثوا بأظافرهم وأسنانهم في ألواحها. وأيقنوا أنهم لا محالة هالكون.

وفجأة تنفسوا الصعداء، فقد تلاشت العاصفة كما بدأت.. وسكنت الرياح. وهدأت عناصر الطبيعة الثائرة، وانقطع سقوط البرد، وأخذ الجليد يتساقط خفيفًا بطيئًا، وفترت حركة الأمواج. وبعد دقائق كانت السفينة تطفو فوق بحر ساكن، لكنهم كانوا في ظلام دامس، حتى خيل إليهم أنهم في أعماق جب حالك السواد.

وجد هؤلاء المنكودون في هذا السكون الذي أعقب ثوران العاصفة راحة لا تقدر. فذهب عنهم الذعر الذي تملك قلوبهم، ودب الأمل في صدورهم، وتخلوا عن الألواح والحبال التي تشبثوا بها.. ونهضوا.. وبدأوا يتنقلون فوق سطح السفينة.

وفجأة حدثت ثغرة في قاع السفينة، ولم يدر أحد متى ولا أين حدثت؟ وأكبر الظن أنها حدثت من ارتطام السفينة بإحدى الصخور المختفية تحت سطح الأمواج أثناء اقترابها من صخور (كاسكتس) ولم يشعروا بالصدمة ولم

يفطنوا إليها لانهماكهم في تفادي الاصطدام بالصخور الأنفة الذكر.

ذهبوا جميعا إلى عنبر السفينة وحملوا جميع الأمتعة التي جاءوا بها معهم من اليابسة، ورموها في بطن الماء.

وخف حمل السفينة.. وقلت سرعة غوصها في الماء.. لكنها ما فتئت تغوص تدريجيًا. سقط في أيديهم، واستنفدوا جميع الحيل، وقال قائل:

– هل هناك شيء آخر يمكن أن نلقيه في البحر؟

نهض الأستاذ الذي نسيه الجميع، وقال ردا على السؤال:

– نعم.

فسأله الزعيم:

– ما هو؟

فأجاب الأستاذ:

– جريمتنا.

سرت في أجسادهم رعدة.. ورفع الأستاذ يديه إلى السماء وهو شاحب اللون.. وقال:

–اركعوا.تمايلوا.. وهذا التمايل هو مقدمة الركوع.

واستطرد الأستاذ:

– لنلق بجرائمنا في اليم، فهي تثقلنا، بل هي التي تغرق السفينة، لنترك التفكير في النجاة، ولنفكر في تطهير أرواحنا وغسل أدران جريمتنا الأخيرة التي ارتكبناها الآن، أو بعبارة أخرى أتممنا حلقاتها الأخيرة. أيها التعساء المنكودون الذين تصغون إلي.. إن الذي يذنب في حق طفل لا حول له ولا قوة إنما

يرتكب جريمة بشعة تستوجب سخط الله ونقمته. أيها الأخوة.. إن يد الله فوق أيدينا.. تذكروا أننا عملنا منذ قليل على القضاء على ذلك الطفل البريء، وربما كانت روحه الطاهرة في هذه اللحظة تحلق في السماء شاكية إلى العدالة الإلهية التي لا تغفل عن ظلمنا وجرمنا.

لننتفع بهذه المحنة الأخيرة، ولنحاول ما استطعنا أن نكفر عن الجريمة التي ارتكبناها. إذا عاش الطفل بعدنا فلنصلح ما ارتكبنا في حقه، وإذا مات فلنلتمس صفحه وغفرانه. هتفوا جميعا في صوت واحد:

– أنت!.. أنت!.. لا يوجد سواك سنعطيك.. فماذا نفعل؟ تكلم.

قال الأستاذ: إن المشكلة هي كيف نجتاز الهاوية المجهولة ونصل إلى شاطئ الحياة الأخرى، بعد القبر. إني أعلم أكثر مما تعلمون ومن هنا كانت تبعتي أثقل من تبعاتكم، وأنكم تحسنون صنعا بترككم كل شيء بين يدي.

سكت قليلا ثم استطرد:

–ما هو الوقت الباقي أمامنا؟

نظر أحد البحارين المدعو "جالديزن" إلى حاجز السفينة، ثم أجاب:

– حوالي ربع ساعة..

فقال الأستاذ: –حسنا.

أخرج الأستاذ من جيبه المحبرة والقلم والمفكرة والرقعة الجلدية التي كتب فوق ظهرها تلك الأسطر المجهولة منذ ساعات قلائل وقال:

– أريد ضوءًا.

كان الثلج المتساقط قد أطفأ المشاعل إلا واحدًا، فذهب إليه "آف ماريا"

البحار الثاني وحمله وجاء به ووقف قرب الأستاذ. الذي أعاد المفكرة إلى جيبه.. وبسط الرقعة الجلدية فوق سقف السلم. وقال:

–أصغوا إلي.

ثم أنشأ في هذا السكون الرهيب يتلو على الجميع ما سطره من قبل، وقد أطرقوا برؤوسهم، وامتقعت وجوههم، وزاغت عيونهم.كانت الكتابة التي سطرها وراح يتلوها، باللغة الإنجليزية وبين حين وآخر كانت نظرات التساؤل ترتفع إليه، فكان يعيد المعنى بالفرنسية أو الإسبانية أو الإيطالية.

وفي إبان هذا الموقف الرهيب كانت تتصاعد الزفرات مختلفة وتلطم الصدور والوجوه.. كل ذلك والسفينة تغوص في الماء شيئًا فشيئًا.

ولما فرغ الأستاذ من تلاوته بسط الرقعة بعناية فوق سقف السلم، وتناول القلم ووقع في ذيل الرقعة باسم "جرنادوس جيسموند".

ثم التفت إلى رفاقه قائلا: تعالوا.. ليوقع كل منكم باسمه وتقدم أفراد العصابة ووقعوا بأسمائهم واحدًا بعد الآخر وفي جملتهم المرأتان. ثم أضاف الأستاذ تحت التوقيعات الفقرة التالية.

"كانت السفينة تحت قيادة القبطان وبحارين.. وقد اكتسحت الأمواج القبطان وأغرقته.. ووقع كلا البحارين باسمه".

وتقدم البحاران ووقعا باسميهما في ذيل هذه الجملة.

ثم قال الأستاذ: كابجاروب!

فأجابه الطاهي الذي كان بداخل العنبر:

– نعم..

– هاتها.

تجرع "كابجاروب" ما بقي في الزجاجة وأعطاها إلى الأستاذ. وكان الماء يرتفع في القاع، وأخذت السفينة تزداد غوصًا في البحر. ووصلت الأمواج إلى حافة السفينة. وكان الكل مجتمعين في منتصفها.

جفف الأستاذ المداد في نار المشعل.. ثم طوي الرقعة ودسها في الزجاجة، وسأل عن سدادتها، فقال كابجاروب: لا أعرف أين ذهبت؟

قال أحدهم: ها هي ذي قطعة حبل.

غطى الأستاذ فوهة الزجاجة بقطعة الحبل. وطلب أن يؤتى له بشيء من القطران. فذهب البحار المدعو "جالديزن" إلى مقدمة السفينة وعاد بعد قليل حاملا إناء به قطران وقدمه إلى الأستاذ. وبعد دقائق كانت الزجاجة المحتوية على الرقعة الجلدية الموقع عليها من الجميع مسدودة ومطلية بالقطران. وقال الأستاذ:

– تمت العملية.

ثم تحول الأستاذ إلى رفاقه في الإجرام والبؤس. وتقدم بضع خطوات إلى حافة السفينة. ووقف الجميع خلفه يتهامسون بالصلاة. وهم يترنحون كأوراق في مهيب الرياح وقد ضموا أيديهم واحنوا جباهم ولاحت عليهم دلائل الذل والمسكنة.

التفت إليهم الأستاذ، وقال:

– انتبهوا إلي.

ثم تأمل البحر قليلًا واستطرد:

– والآن سنموت.

وتناول المشعل من يد البحار "آف ماريا" ولوح به، وألقاه في الماء فانطفأ المصباح. وتلاشى الضوء. وساد الظلام. ثم سمعوه يقول:

– لنصل...

ركع الجميع، فغاصت ركبهم في الماء. لم يبق أمامهم سوى دقائق معدودة. وبقي الأستاذ وحده واقفا، وكانت قطع الجليد تتساقط فوقه فبدا هيكله أبيض اللون في الظلام. رسم الأستاذ علامة الصليب، ورفع صوته، وأخذ يتلو صلاة كلها خشوع واستغفار وهم يرددونها بعده. وفيما هم كذلك ارتفعت المياه إلى أكتافهم، ثم انقطعت أصواتهم. نظر الأستاذ إليهم، فإذا رءوسهم جميعا غائرة تحت الماء.. وقد استسلموا للغرق وهم راكعون على الأرض. تناول الأستاذ الزجاجة التي كان قد تركها فوق سقف السلم وفيما كان يغوص في الماء راح يتم صلاته التي بدأ فيها. بقي كتفاه لحظة فوق الماء، ثم رأسه، وبعد ذلك لم يظهر منه سوى ذراعه رافعا بها الزجاجة كأنما يقدمها إلى الأبدية.

ثم اختفت الذراع، واستمر تساقط الجليد، وبقي جسم واحد طافيا هو الزجاجة التي أبقاها الحبل فوق سطح المياه، وحملتها الأمواج في الظلام.

طفل في الظلام

لم تكن العاصفة أقل عنفا فوق اليابسة.. ووقع الطفل المنبوذ فريسة لعناصر الطبيعة الهائجة. تقدم الطفل في الضباب المنتشر وهو لا يدري أين هو ولا إلى أين يسير؟

كان يتقدم في برزج يحده الخليج من ناحية والبحر الهائج من ناحية أخرى وهو يجهل ذلك تمامًا.. فإذا نجا من مفاجآت الذباب والجليد لم ينج من الوقوع في الماء.

سار الطفل إلى الأمام محاذرًا في أرض تنتشر فيها الصخور الوعرة والحفر العميقة، والكثبان الرملية النادرة. ولم تكن أمامه طرق معبدة ولا مسالك مرسومة.. بل راح يشق طريقه بالغريزة.. فتارة يكاد يسقط في هاوية عميقة.. وأخرى يندس في الماء حتى ركبتيه، فإذا خرج من الماء تصلبت ساقاه بفعل البرد الشديد الوطأة.

على أنه مع ذلك كان يتقدم إلى الأمام مسرعا في أسماله المتصلبة.. وبذل ما يملك من جهد لإبقاء سترة البحار التي تكسوه جافة دافئة فوق صدره.. وكان الجوع يمزق أحشاءه، والجليد المتساقط يكاد يخنق أنفاسه.

مضت نصف ساعة وهو لا يكل عن التقدم بين الارتفاع الهبوط.. ثم أحس الأرض ترتفع تحت قدميه.. فقد اجتاز البرزخ، ووصل إلى الأرض المنبسطة..على أنه ألفى نفسه وجهًا لوجه أمام العاصفة، والبرد، والليل.

امتد أمامه سهل فسيح مترامي الأطراف، فراح يفتش في الأرض عن طريق مسلوك، وفجأة رأى بين طبقات الجليد الطريق الذي ينشده.

لم يكن طريقا بالمعنى المفهوم.. بل كان أثر قدم منطبعا فوق الجليد. فحص الأثر.. فإذا هو مختلف عن قدم عارية أصغر من قدم الرجل وأكبر من قدم الطفل.. هي قدم امرأة.

تكرر أثر القدم.. وامتد في الظلام، وكان حديث العهد ظاهر المعالم لم يكد الجليد يكسوه بعد، فأدرك الطفل أن امرأة مرت منذ وقت قصير في هذا المكان، ولم يتردد في اقتفاء أثرها.

تتبع آثار الأقدام بعض الوقت.. وكان الثلج الكثيف المتساقط يطمس هذه الآثار أحيانًا, غير أن الطفل بذل كل ما يملك من جهد في اقتفاء معالم الأقدام، حتى وصل أخيرًا إلى نقطة انعدمت عندها وتلاشت كأنما طارت صاحبتها في الفضاء، ولم ير أمامه سوى صفحة ناصعة البياض هي الجليد الذي يكسو الأرض، وقبة حالكة السواد هي أديم السماء.

انحنى الطفل فوق الأرض وراح يفتش عن الآثار. غير أنه كان ينشد المستحيل.. وفيما هو يرفع رأسه خيل إليه أنه سمع صوتًا خافتًا لم يدر ما هو ولا أين مصدره، فالتفت حوله، غير أنه لم ير شيئا. ولما استأنف سيره سمع الصوت من جديد. ولم يشك فيه هذه المرة. فقد كان أنينًا هو أقرب إلى النحيب. تطلع حوله.. وأرهف حواسه. غير أنه لم يعرف مصدر الصوت وتكرر في سمعه.. فساوره الخوف، وفكر في الهرب.

تغلب الطفل على خوفه وتقدم إلى الأمام، فزاد الصوت وضوحًا في سمعه وعرف فيه بكاء حارًا موجعًا وأنينًا يفتت الأكباد.

وصل الطفل إلى بقعة في الجليد. فرأى عند قدميه بروزا في حجم الجسم الآدمي يشبه غطاء القبر، وفي نفس الوقت صدر الصوت من تحت هذا البروز.

انحنى الطفل وأخذ يزيح الجليد بكلتا يديه، وفجأة ظهر في الفجوة التي أحدثها وجه شاحب اللون.

لم تصدر الصرخة التي سمعها من هذا الوجه، فقد كانت العينان مقفلتين والفم مفتوحًا ومملوءًا بالجليد.

بقي الوجه جامدًا ولم يختلج تحت يد الطفل. وما كاد يمسه بأصابعه حتى سرت في جسده رعدة لفرط برودته.

كان وجه امرأة اختلط شعرها المهدل بالجليد.. وفارقتها معالم الحياة.. استأنف الطفل أبعاد الجليد. فظهر عنق المرأة الميتة، ثم كتفاها في أسمال بالية، وفجأة أحس بشيء يتحرك حركة عنيفة تحت أصابعه. فأسرع الطفل برفع الجليد. وكشف عن جسم صغير نحيل في برودة الثلج راقد فوق صدر المرأة العاري، غير أنه كان ينبض بالحياة.

كانت طفلة رضيعة، يتراوح سنها بين ستة أشهر وعام. وما كاد وجهها يتعرض للهواء حتى استأنفت الصرخات التي سمعها الطفل وجاء على أثرها. فحملها بين ذراعيه.

وللأم الميتة وطفلتها الحية قصة محزنة يسيرة. فهي امرأة متسولة حملت طفلتها الرضيعة فوق صدرها وهامت على وجهها في هذا السهل التماسا لمأوى، فدهمتها العاصفة، وتغلب عليها البرد فهوت على الأرض هي وطفلتها وظلت تحميها بذراعيها فوق صدرها حتى لفظت أنفاسها.

وكانت صرخات الطفلة هي التي سمعها الطفل الضال. فجاء وأخرجها من تحت الجليد، وحملها بين ذراعيه.وما كادت الطفلة تشعر بأنها بين ذراعيه حتى كفت عن البكاء. والتمست شفتاها القرمزيتان وجنة الغلام كأنها ثدي.

كانت أطرافها متصلبة شديدة البرودة. فوضعها الغلام فوق صدر أمها ونزع سترته ولفها فيها وحملها بين ذراعيه ثانية. ثم استأنف سيره وهو يكاد يكون عاريا تحت وطأة الريح القارص والجليد المتساقط. وتقدم الغلام إلى الإمام وهو منهوك القوى بردًا وجوعًا. وكانت قدماه تغوصان أحيانًا في حفر مملوءة بالجليد. فيحس أنه يكاد يدفن حيا ويلقى مصير الأم التعسة. غير أنه كان يتحامل على نفسه ويستأنف سيره..

كانت حالته تدعو إلى الرثاء وهو يهيم على وجهه في هذا القفر الموحش وحيدًا فلما أضيف إليه هذا العبء الذي يكاد يشل حركته زادت حالته سوءًا وتجرع كأس البؤس والشقاء حتى الثمالة.

وفجأة، لمح من خلال الجليد المتساقط الذي كان يعمي عينيه مجموعة من السقوف والمداخن أمامه، على مسافة قصيرة.. فانتعشت قواه، ودب الأمل في صدره.. وأسرع في خطواته.

وصل إلى المنازل أخيرًا.. وصادف أمامه شارعا يقوم على رأسه بيتان.. كان الشارع مظلمًا.. ولم ير الغلام قبسا من النور ينبعث من أية ناحية من نواحيه.

كان أحد البيتين منخفضًا حقيرًا والثاني شامخًا فخمًا.. فلم يتردد الغلام.. واتجه إلى البيت الأخير.. وطرق بابه فلم يجد أحدًا.

طرق الباب مرة ثانية.. وثالثة.. وما من مجيب. فأدرك أن أصحاب البيت مستسلمون للرقاد الهنيء.. وأنهم لم يحفلوا بالنهوض.

تحول الغلام إلى البيت الثاني والتقط حصاة وطرق بها بابه المنخفض.. فلم يجبه أدنى صوت. وقف الغلام على أطراف أصابعه وطرق زجاج النافذة بالحصاة غير أنه لم يسمع صوتًا ولا حركة.. ولم ير ضوءًا.. وأدرك أن أصحاب هذا

البيت لا يحفلون كذلك بالنهوض..

ولم يجد إلا أن يتقدم في الشارع ويتغلغل بين هذه البيوت التي تشبه مقابر الأموات.

طرق بيوتا كثيرة.. ولكنه لم يوفق.. ولم يجبه سوى السكون المطبق.

قد يدهش القارئ من هذا السكون الذي قوبل به الغلام.. لكنه يعلل من بعض الوجوه.. فقد فشا طاعون مخيف في لندن في ذلك العهد.. وكان خوف الناس من استقبال المتسولين والموبوءين يدفعهم إلى تحصين أبوابهم والتنكر للضيافة ومقابلة الطارقين بالسكون المطبق.

كان برود البشر أشد إيلامًا ووقعا في نفس الغلام من برود الطبيعة وقسوتها.. وأحس أنه بلغ نهاية التعاسة والشقاء.

دب اليأس والخور إلى نفس الغلام.. ووقف في مكانه مغلوبًا على أمره. ورأى أن من الخير له أن يترك نفسه يسقط على الأرض ويستسلم للفناء.

وفيما هو كذلك سمع فجأة همهمة غريبة..

ضيافة الفيلسوف

وصل إلى سمع الغلام من خلال الظلام زمجرة مخيفة مصحوبة بطحن أسنان..كان الصوت يلقي الرعب في النفوس. غير أن الغلام تقدم إلى الأمام. واستدل منه على وجود كائن حي مستيقظ.. ولم يحفل بأن يكون وحشًا ضاريًا.

دار الغلام حول جدار.. فرأى أمام انعكاس الجليد مركبة ضخمة هي في الواقع غرفة خشبية كبيرة قائمة على عجلات، ولها مدخنة يصعد منها الدخان.. وباب خلفي به نافذة صغيرة ينبعث منها نور. فتقدم نحو المركبة.

اشتدت الزمجرة.. وسمع الغلام صوتًا يشبه سلسلة تشد إلى نهايتها ورأى من خلال الظلام صفين من أنياب حادة طويلة تبدو قرب عجلتي المركبة الخلفيتين.. وفي نفس الوقت أطل رأس من نافذة الباب وقال صاحبه: اسكت يا هومو!

سكتت الزمجرة.. واستأنف صاحب الرأس كلامه:

– هل يوجد أحد هنا؟

أجاب الغلام: نعم.

– من؟

– أنا

– أنت؟ من أنت؟. من أين جئت؟

فأجاب الغلام: أنا في شدة التعب.

–كم الساعة الآن؟

– أنا أكاد أموت من البرد.

– ماذا تفعل؟

– أنا جائع.

قال صاحب الرأس: إليك عني. واندس الرأس داخل المركبة، وأغلقت النافذة. وأحنى الغلام رأسه، وضم الطفل النائم بين ذراعيه، واستجمع قواه لاستئناف سيره، وهم بالابتعاد. على أنه في اللحظة التي أغلقت فيها النافذة فتح باب المركبة الخلفي وأنزل منها سلم قصير، وصاح صاحب الصوت من الداخل في نبرات غاضبة: لم لا تدخل؟ ودار الطفل على عقبيه، فاستطرد، المتكلم: أدخل. من رماني بهذا الشخص الجائع التعب المصاب بالبرد الذي لا يريد أن يدخل؟ وبقى الغلام جامدًا في مكانه إزاء هذا الترحاب والصد، فاستطرد المتكلم: قلت لك أن تدخل أيها الشقي الصغير. وضع الغلام قدمه على درجة السلم.. فسمع زمجرة شديدة تحت المركبة. وظهر الفم ذو الأنياب من خلال الظلام. فتراجع الطفل إلى الخلف. وصاح المتكلم: أسكت يا هومو. وتراجعت الأنياب.. وانقطعت الزمجرة. فاستطرد الرجل: أصعد.

صعد الغلام درجات السلم الثلاث بصعوبة بسبب الحمل الذي يعوق حركاته.. وكانت الطفلة محجوبة تحت السترة، لا يبدو منها شيء. وقف الغلام في مدخل المركبة.. كانت تضيئها جذوة ينبعث وهجها من فوهة موقد.. وفوق الموقد إناء يتصاعد منه بخار. وكان بالمركبة صندوق ومقعد بلا ظهر ومصباح مطفأ مدلى من السقف. ورفوف كثيرة عليها زجاجات مختلفة وأوان عجيبة لم يفهم الغلام وظائفها.. هي أوان للطهو ولتجهيز المواد الكيميائية. وكان الوهج المنبعث من الموقد ينعكس على سقف المركبة التي تشبه صندوقًا ضخمًا مستطيلًا.. فيبدو للناظر إليه هذا الاسم الغريب:

"ارسوس- فيلسوف"

رأى الغلام قرب الموقد رجلًا طويل القامة نحيل الجسم أبيض الشعر، تتراوح سنه بين الخمسين والستين.. يكاد يصل رأسه إلى سقف المركبة.

كان "ارسوس" مخلوقًا عجيبًا.. فهو لا يملك من الدنيا سوى هذه المركبة ومعها ذئب مستأنس هو ذلك الحيوان الذي ناداه باسم "هومو" وكان يقيده أسفل المركبة.

وكان يطوف بمركبته وذئبه المستأنس كافة الشوارع ويتنقل في مختلف القرى.. يبيع الناس بعض الأدوية التي يجهزها بنفسه، ويعرض عليهم بعض الألعاب المسلية التي يقوم بها الذئب هومو.

والواقع أن ارسوس كان يجمع أكثر من مهنة واحدة، فهو طبيب وحاو، وشاعر ومؤلف، وممثل وحكيم، وفيلسوف.. كان يجمع إلى هذا كله مقدرة غريبة في تقليد أصوات الناس والطيور والحيوان.. وكان يتكلم من بطنه، فتسمع الكلام صادرًا منه دون أن تتحرك شفتاه. وهكذا كان يجمع قوته وقوت هومو بالطواف في الأسواق، والتنقل في القرى عارضًا كفاياته العجيبة وبراعة ذئبه.

قال ارسوس. مخاطبًا الغلام: ادخل!. ودخل الغلام. فقال له ارسوس: ضع حملك. فوضع الغلام الحمل بحذر ورفق فوق الصندوق حتى لا يوقظه. هل تخاف أن تتمزق خرقك البالية؟ يا لك من متشرد تطوف الشوارع في مثل هذا الوقت من أنت؟ أجب. لكن. لا.. اسكت. أنت تشعر بالبرد. دفئ نفسك.

ودفعه إلى جانب الموقد ثم استطرد: أنت مبلل، إنك تكاد تتجمد من البرد. أنزع هذه الخرق أيها الشرير.. ومد يده بسرعة وانتزع الأسمال البالية فوق جسد الغلام فتناثرت خيوطها في يده، وتناول بيده الثانية قميصًا وسترة معلقين،

وقال له: ألبس.. ثم مد يده إلى بعض الخرق ودفأها في نار الموقد وجعل يدلك بها أطراف الغلام وصدره. فخيل إلى الغلام وقد أحس الدفء أنه ملك الدنيا وبلغ قمة السعادة. ولبس الغلام القميص، ووضع الرجل السترة فوقه، ثم دفع المقعد وأجلسه فوقه، وأشار إلى الإناء الذي كان فوق الموقد وبه بعض البطاطس واللحم وقال له: أنت جائع. كل. ثم تناول من فوق رف قطعة من الخبز اليابس وشوكة من الحديد وقدمها إلى الغلام. وتردد الغلام فقال الرجل:– ربما كنت تنتظر أن أطرح الفوطة على ركبتيك. ثم نقل الطعام في صفحة ووضعها في حجر الغلام. تغلب جوع الغلام على دهشته. وأخذ يلتهم الطعام التهامًا. بل كان يزدرده.. وفي هذه اللحظة ارتفع في جوانب الكوخ بكاء مؤثر.. فأنصت الرجل. وقال: تبكي أيها الشقي. لم تبكي؟. تطلع الغلام إلى الرجل. فرأى فمه مملوءًا بالطعام وتبين له أن البكاء لم يصدر منه. استمر البكاء فتقدم الرجل إلى الصندوق وقال:

– إذن فهذا الحمل الذي جئت به هو الذي يبكي! عجيب!. طرد يبكي!

بسط الرجل السترة. فظهر له رأس الطفلة الباكية. فقال:

–ما هذا؟.. مخلوق جديد! ألا ننتهي؟ ما هذا الذي جئتني به أيها اللص؟. ألا ترى أنه ظمآن؟ لابد له من شيء يشربه ولن يبقى لي حتى اللبن!

تناول الرجل قطعة من قماش الكتان وإسفنجة وزجاجة صغيرة.. ثم ألقى نظرة على الطفلة وقال: هي بنت!. صراخها يدل على ذلك.. وهي مبللة أيضًا.

ونزع الرجل الغرق التي كانت تغطي الطفلة ولفها في خرقة نظيفة. ثم تناول إناء به لبن دافئ وصبه في الزجاجة الصغيرة ودس في فوهتها قطعة الإسفنج

وغطاها بقطعة من الكتان وربط حول عنق الزجاجة خيطًا.. وحمل الطفلة تحت ذراعه اليسرى وأدنى الزجاجة من فمها بيده اليمنى قائلا:

– خذي عشاءك.

كفت الطفلة عن البكاء. وأخذت تمتص اللبن بشراهة.

في هذه الأثناء ترك الغلام الشوكة.. نسى الأكل حينما رأى الطفلة تمتص اللبن.. ولمعت عيناه ببريق الشكر والامتنان، وكان يتطلع إلى ارسوس بين وقت وآخر بنظرات تنم عن أبلغ آيات الحمد.. فقال له الرجل غاضبًا: –ألا تأكل؟

فقال الغلام وهو يرتجف وقد ترقرقت الدموع في عينيه:

– وأنت لن يبقى لك شيء.

– هل تتفضل بأن تأكل كل شيء؟

تناول الغلام الشوكة، بيد أنه لم يأكل، فصاح ارسوس:

– كل! ماذا يهمك؟ من يهتم بي؟ كل كل شيء. أنت هنا لكي تأكل وتشرب وتنام، كل، كل وإلا طردتكما معا.

عاود الغلام الأكل تحت هذا التهديد .. ولم يجد عناء في الإجهاز على ما بقى من الطعام في الصفحة. أما الطفلة فقد امتصت اللبن عن آخره.. فنهض ارسوس عن الصندوق حيث كان جالسًا.. ورفع غطاءه.. وأخرج من داخله فروة كبيرة من جلد الدب.. فبسطها فوق الصندوق، وأرقد الطفلة التي عاودت النوم فوقها. ألقى نظرة على إناء اللبن فوجد به بضع جرعات.. فرفع الإناء إلى فمه. وفيما هو يهم بالشراب ألقى نظرة على الطفلة.. وسرعان ما وضع الإناء فوق الموقد، وتناول الزجاجة الصغيرة، فنزع عنها الإسفنجة، وصب فيها اللبن الباقي الذي ملأها وأعاد إليها السدادة.

وفرِغ الغلام من الأكل.. ونظف الصحفة.. فالتفت إليه ارسوس قائلًا:

– لي معك كلمة.. لم يجعل الفم للأكل فقط، بل للكلام كذلك الآن وقد تدفأت وامتلأت، أجب عن أسئلتي من أين جئت؟

– لا أعرف.

– ماذا تعني بهذا الكلام؟

– إني تركت وحدي في أول الليل على شاطئ البحر.

– ما أسمك أيها الشقي الصغير؟ من هم أهلك؟

– ليس لي أهل.

– اسمع يا شقي.. أنا لا أحب الكذب.. لابد أن يكون لك أهل ما دامت لك أخت.

– ليست أختي.

– ليست أختك؟

– نعم.

– من هي إذن؟

– هي طفلة وجدتها.

– وجدتها؟

– نعم.

– أين؟ إذا كذبت سأؤدبك.

– وجدتها فوق صدر امرأة ميتة تحت الجليد.

– متى؟

– منذ ساعة.

– أين؟

– على بعد مرحلة من هنا.

قطب ارسوس وجهه، وهي علامة التأثر عند هذا الفيلسوف، وقال:

– ميتة! هذا من حسن حظها.. لنتركها حيث هي بين الجليد فهي في أفضل مكان.. في أي جهة؟

– قرب البحر.

ذهب ارسوس إلى النافذة التي كان بها كسر في لوجها الزجاجي فسده بخرقة وألقى بعض الحطب في الموقد. وحمل كتابًا كبيرًا كان في أركان الكوخ ووضعه تحت جلد الدب كأنه وسادة، وأسند رأس الطفلة فوقه. ثم التفت إلى الغلام قائلًا: نم هنا..

أطاع الغلام.. وتمدد فوق الصندوق بجانب الطفلة.

لف ارسوس جلد الدب فوق الطفلين.. ثم جاء بحزام من الكتان ذي جيب كبير يحتوي على علبة بها مجموعة من الآلات وبعض زجاجات من أشربة مقوية، ولف الحزام حول وسطه.وأنزل المسباح من السقف وأضاءه.. وقال وهو يفتح الباب:

– أنا خارج.. لا تخف.. سأعود.. نم.

وأدلى ارسوس السلم ونزل.. ثم عاد إلى مكانه وأغلق الباب. ونادي الذئب هومو.. فأجابته زمجرة خفيفة. قال ارسوس من الخارج:

– يا ولد! يا من أكلت عشائي! هل نمت؟

فأجاب الغلام من الداخل: لا.

– لا بأس.. إذا بكت الطفلة أعطها اللبن الباقي.

وفك ارسوس سلاسل الذئب.. وابتعد الاثنان في الظلام.. ولم تمض سوى دقائق حتى استغرق الطفلان في نوم عميق.

اليقظة

أوشكت نار الموقد على الانطفاء، وتسرب ضوء النهار من نافذة المركبة.. واستيقظ الغلام وبقى فوق الصندوق ممددًا على ظهره في شبه ذهول. سمع صوت مفتاح يدار في قفل الباب.. ثم فتح الباب وأنزل السلم.

عاد ارسوس.. وصعد إلى المركبة ومعه المصباح مطفأ.. وجاء الذئب في أثره.. فما كاد الغلام يرى هومو في داخل المركبة حتى طرح جلد الدب ونهض ووقف أمام الطفلة يحميها بجسده. وعلق ارسوس المصباح في مكانه، وخلع الحزام وأعاده إلى موضعه بحركات آلية.. لم يكن ارسوس ينظر إلى شيء.. فقد كان ذهنه يضطرب بأفكار غامضة.. وأخيرًا عبر عما يجيش في نفسه بهذه الكلمات:

– هي سعيدة بلا ريب.. ميتة! ميتة كالحجر..

ثم تناول بعض الحطب وألقاه في الموقد، وقال وهو يحركه:

– وجدت صعوبة كبيرة في الاهتداء إليها.. كانت مدفونة تحت الجليد.. ولولا هومو لكنت لم أزل أبحث عنها بين الجليد ما كان أبرد جثتها! إني لمست يدها، فوجدتها متصلبة كالجماد. كيف يبلغ الحمق ببعض الناس إلى حد الموت وترك طفلة صغيرة؟ ثلاثة في صندوق!. سنتعب كثيرًا!. معي الآن أسرة عجيبة! ولد وبنت.

وبينما كان ارسوس يتكلم تقدم إلى ناحية الموقد.. كانت يد الطفلة الصغيرة مدلاة بين الصندوق والموقد.. فأخذ الذئب يلعقها بحركة خفيفة رقيقة حتى أن الطفلة لم تشعر بها ولم تستيقظ. التفت ارسوس وقال للذئب:

– أحسنت يا هومو!.. سأكون أبا.. وستكون عما..

ورفع ارسوس رأسه والتقت عيناه فجأة بعيني الغلام.. فقال ارسوس بخشونة:

– ماذا يضحكك؟

فأجاب الغلام: أنا لا أضحك.

فأحس ارسوس بصدمة.. وتفرس في وجه الغلام بضع دقائق، ثم قال له إذن فأنت مخيف! كان داخل المركبة مظلمًا أثناء الليلة الماضية. ولذلك لم يجد ارسوس فرصة لرؤية وجه الغلام.. أما الآن فقد بدا له في ضوء النهار. أمسك ارسوس بالغلام من كتفيه.. وتفرس في وجهه بدقة.. وهتف:

– قلت لك لا تضحك.

فأجاب الغلام:

– أنا لا أضحك.

سرت رعدة في كيان ارسوس حتى هزته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. وقال:

–بل أقول أنك تضحك.

وهز الغلام هزة تتردد بين الغضب والرثاء، وسأله بخشونة:

– من فعل بك هذا؟

فأجاب الغلام:

– لا أفهم قصدك.

– منذ أي عهد لك هذه الضحكة؟

فأجاب الغلام: إني كنت هكذا دائمًا.

فتحول ارسوس إلى ناحية الصندوق. وقال في صوت خافت:

– كنت أحسب أن هذه الفظائع بطلت وتلاشت في زوايا التاريخ لكن يحسن ألا تتغلغل في بحث هذا الموضوع. يكفي أن نبقى على السطح.. أضحك ما شئت يا بني.

وفي هذه اللحظة استيقظت الطفلة.. وبكت.. وجلست.. فحمل ارسوس زجاجة اللبن وأخذ يرضعها. وأشرقت الشمس، ونفذت أشعتها من زجاج النافذة.. وسطعت فوق وجه الطفلة. رأى ارسوس عيني الطفلة جامدتين لا تختلجان، وجفنيها أيضًا.. فهتف: انظر! هي عمياء!

طبائع البشر

كان اللورد "لاينوس كلانشارلي" معروفا بأنه من أشد أنصار الجمهورية التي أقامها القائد "كرومويل" في إنجلترا.. فلما دامت دولة الجمهورية وعادت الملكية إلى سابق عزها وسطوتها لم يشأ اللورد "كلانشارلي" أن ينطوي مع غيره من النبلاء تحت راية العرش الإنجليزي بل بقى على عهده للجمهورية الزائلة، وآثر أن يغادر إنجلترا ويقيم في قصر مهجور على ضفاف بحيرة جنيفا في سويسرا.

وقد فقد اللورد العنيد جاهه وصودرت أملاكه وثروته. وأخذ مواطنوه يسخرون من عناده ويرمونه بالجنون. وكان بوسعه لو أنه أعلن خضوعه للملك شارل الثاني أن يعود إلى وطنه معززًا مكرمًا ويستعيد مكانته السابقة.. غير أن قناعته لم تلن. وأصر على عناده ومعاداته للملكية! حتى شاخ ودب إليه الفناء. ونسيه الناس.

وكان لهذا اللورد في شبابه عشيقة جميلة من الطبقة الراقية.. وقد أنجب منها ابنا ظهر إلى الوجود وقت سقوط الجمهورية وذهاب أبيه إلى المنفى. وشب هذا الابن في بلاط الملك شارل الثاني. وسرعان ما نسيت أمه وفاءها لعشيقها المنفي. وأصبحت معشوقة للملك شارل الثاني الذي شمل الابن برعايته، وتعهده حتى صار ضابطًا في البحرية، وجعله من أفراد حاشيته المقربين، وسمي الابن باسم اللورد "دافيد ديري موير". وهكذا بسم له الدهر وقت أن كان والده اللورد "كلانشارلي" يشيخ في المنفى.

وفي عهد الملك "جيمس الثاني" سطع نجم اللورد "دافيد" ولما كان شابًا باسلًا ذا وجاهة ووسامة فإنه قربه إليه وأسند إليه كثيرًا من مناصب القصر

وأجرى له رواتب شهرية متعددة. وأراد أن يفسح له المجال حتى يصبح من أعضاء مجلس اللوردات وهو أرفع منصب في الدولة بعد الملك والأمراء.

لكن كانت تقوم دون تحقيق هذه الرغبة عقبة، فلكي يصبح اللورد "دافيد" من أعضاء هذا المجلس، يتحتم أن يكون نبيلًا بالوراثة، وأن تكون له أملاكه وضياعه ولقبه الوراثي، وهو لم يتسم باسم اللورد إلا من باب العرف والمجاملة لأمه. فكيف السبيل إلى تحقيق هذه الغاية! سنحت الفرصة أخيرًا. فقد أذيع ذات يوم أن اللورد "كلانشارلي" توفى في منفاه. لكن تواترت إشاعات تقول بأن اللورد تزوج قبيل وفاته بامرأة من العامة تدعي "آن برادشو"، وأنجب منها ولدًا، ثم توفى الأبوان، وتركا الطفل الصغير يتيمًا. لم يكن لهذه الشائعات ما يؤيدها، ولذلك لم يتردد الملك جيمس الثاني، وأعلن في أحد الأيام أن هذه الشائعات لا نصيب لها من الصحة، وقد ثبت له ثبوتًا قاطعًا بمستندات موجودة في مجلس اللوردات أن اللورد كلانشارلي توفي دون أن يكون له وريث شرعي، ولذلك أعلن الملك استنادًا إلى هذه الظروف، أن "اللورد دافيد ديري موير" هو الوريث الوحيد لوالده اللورد كلانشارلي، وأمر بأن تمنح له ألقاب اللورد المتوفي وأملاكه وثروته، بشرط أن يتزوج، في الوقت المناسب، طفلة كانت صغيرة السن في ذلك العهد، خلع عليها الملك لقب "الدوقة جوشيانا" وهكذا سنحت الفرصة للورد دافيد لكي يصبح من النبلاء.

ناهزت الدوقة جوشيانا الثالثة والعشرين من عمرها حوالي عام ١٧٠٥ وكان اللورد دافيد في الرابعة والأربعين.. غير أن الزواج المشروط لم يتم بينهما حتى هذا التاريخ. فقد أرادت الدوقة جوشيانا أن تبقى حرة طليقة، وأراد اللورد دافيد أن يحتفظ بشبابه إلى أقصى حد ممكن، وألا يتقيد بقيود الزواج حتى لا يبقى هناك أمل في استبقاء عهد الشباب. على أن الود كان متصلا بين

الاثنين.. وصلات الصداقة متبادلة بينهما.. وكانت الدوقة جوشيانا طويلة القامة، ذهبية الشعر ذات ملاحة فاتنة، وذكاء نادر، وكبرياء.. حتى كانت تحتقر الحب وتعده لونًا من ألوان الضعف.. لكن كانت لها طبيعة معقدة ونفسية عجيبة غامضة يحتار الإنسان في دراستها.

أما اللورد دافيد فكان من أعلام الحياة الارستقراطية البارزة، فهو بارع في استحداث الأزياء التي تشيع ويتخذها الجميع شعارًا.. وهو من كبار رواد النوادي. وهو مقامر ولاعب بارع. ونصير متحمس من أنصار الملاكمة. وكثيرًا ما قام في حلباتها حكمًا ينزل الجميع على رأيه ويرضون بكلمته. وكان اللورد دافيد فوق ذلك مغرمًا بارتياد الملاعب التي يقيمها الحواة والمهرجون والمشعوذون في الهواء الطلق. وكان يغشى الحانات وأماكن اللهو الشعبية. ولكي لا يعرفه أحد كان يرتدي سترة بحار واكتسب شهرة كبيرة في هذه الأوساط حتى كان الناس يحبونه ويحترمونه دون أن يعلموا بأنه من اللوردات.. وأطلقوا عليه اسم "توم جيم جاك".. وذاع صيته بهذا الاسم في جميع الأوساط الشعبية ولم يكن يتردد أحيانًا في استخدام قبضته إذا اضطرته الظروف لذلك. وكانت الدوقة جوشيانا تقدر له هذه الحياة وتعجب بها.

في هذا العهد كانت الملكة "آنا" تحكم إنجلترا. كانت ملكة طيبة القلب محدودة الذكاء، متقلبة، سريعة الاستسلام للغضب والانفعال، ضعيفة الإرادة. وبعبارة أخرى كانت مزيجًا من المرأة الطيبة والروح الشريرة. وكان لها طابع غريب في إدارة دفة الشئون السياسية. فقد كانت تترك الأمور تجرى مجراها دون أن تتكلف عناء التحكم فيها.. وكانت لها براعة فائقة في خلق المصائب والمشكلات من أتفه الأسباب. وكانت معروفة بحبها للمزاح الثقيل والدعابة القاسية. لم يكن لها من جمال الجسم سوى عنقها المرمري الذي كانت تحرص

على تجريده. وكانت الملكة "آنا" تحسد الدوقة "جوشيانا" لسببين:

الأول أنها كانت ترى في الدوقة حسنا وملاحة حرمت هي منهما.

والثاني أنها كانت ترى في خطيب الدوقة شخصًا محبوبًا وسيمًا.

بل إنها كانت تحقد عليها كذلك لكونها شقيقتها. وقد تفردت دونها بالحسن. وكان جمال الدوقة وذكاؤها مثار غضبها واستيائها.

باركلفدرو

الطبيعة البشرية مولعة بالتجسس والتطفل. ولذلك كانت الدوقة جوشيانا تتجسس حركات اللورد دافيد بواسطة مخلوق من أتباعها تثق فيه. يدعى "باركلفدرو". وكان اللورد دافيد يراقب الدوقة بواسطة مخلوق من أتباعه يثق فيه يدعى باركلفدرو. وكانت الملكة "آنا" بدورها تتجسس سرًا حركات الدوقة جوشيانا واللورد دافيد تستطلع تصرفاتهما بواسطة مخلوق من أتباعها توليه كامل ثقتها يدعى باركلفدرو.. وهكذا كان المدعو باركلفدرو مقربا إلى الدوقة جوشيانا، واللورد دافيد، والملكة أنا. كان باركلفدرو مخلوقًا وضيعًا. حاول أن يكون من رجال الدين. لكنه فشل في محاولاته. ذاق في حياته من ألوان البؤس والحرمان. لكنه كان صبورًا... وكانت له موهبة في شق طريقه من أسفل إلى أعلى. وظل يسعى بمختلف الحيل ويتوسل بكافة الوسائل حتى تقرب إلى الدوقة جوشيانا.. فرقت لبؤسه وأعجبت بذكائه.. وقدمته للورد دافيد ديري موير، وآوته مع خدمها، وعاملته برقة، وكانت أحيانًا تتنازل بمخاطبته.. وهكذا تخلص باركلفدرو من عذاب البرد وآلام الجوع والحرمان. كان باركلفدرو يطمع في منصب معين. واتخذ من الدوقة جوشيانا سلمًا لبلوغ هذا المنصب، والتقرب إلى الملكة. وذات يوم التمس من الدوقة أن تأذن له بحديث خاص.. وقال لها:

– هل تتفضل سيدتي بمساعدتي في بلوغ وظيفة أنشدها؟

– وظيفة لمثلك!

– نعم يا سيدتي.

– يا لها من فكرة! تسألني وظيفة وأنت لا تصلح لشيء في الحياة؟

- هذا هو السبب الذي يحملني على طلبها.

ضحكت جوشيانا.. وسألته:

- ما هي الوظيفة التي تطلبها؟

- وظيفة (فاتح زجاجات البحر).

- واشتد ضحك جوشيانا، وقالت:

- ماذا تعني.. هل تمزح؟

- لا يا سيدتي.

فقالت الدوقة:

- سأكلمك من باب التسلية. ماذا تريد أن تكون؟

- أريد أن أكون (فاتح زجاجات البحر).

-كل شيء جائز في البلاط.. هل توجد مثل هذه الوظيفة؟

- نعم يا سيدتي.

- هذه معلومات طريفة.. استمر.

- إن هذه الوظيفة موجودة.. وأنا أقسم على ذلك.

- لا أصدقك..

- شكرا لك يا سيدتي..

- إذن تريد أن تكون.. قل من جديد!

- أريد أن أفتح زجاجات البحر..

- هذه وظيفة هينة لا تكلف صاحبها أقل عناء.

– هي تشبه ذلك..

– لن تكلفك أقل عمل.. وهي تليق لك في الواقع.. فأنت لا تصلح لشيء.. أنت تتكلم هزلا.. هل توجد حقا مثل هذه الوظيفة؟

التزم باركلفدرو هيئة الجد والرزانة، وقال:

– سيدتي.. إن البحر يقذف إلى الشاطئ بكثير من الأشياء العائمة.. ولها وظيفة في الأميرالية تعرف باسم وظيفة (الموجودات البحرية).. ولكي أزيد كلامي تفسيرًا أقول.. يتفق كثيرًا أن إحدى السفن التي تمخر عباب البحر تريد أن تنقل لأهل اليابسة معلومات خاصة.. كأن تقول مثلا أنها تسير على عمق كذا، وأنها صادفت وحشًا بحريًا، وأنها توشك أن تغرق، وأنها هالكة.. وهكذا.. والمعتاد أن يتولى قبطان السفينة تدوين هذه المعلومات في رقعة خاصة يدسها في زجاجة، ثم يسد الزجاجة ويلقيها في البحر، حيث تحملها الأمواج أحيانًا وتقذف بها إلى الشاطئ.

– وهل تريد أن تكون ضابط (الموجودات البحرية)؟

– تماما يا سيدتي..

– وهذا هو ما تسميه بفتح زجاجات البحر؟

– قد تبين لسيدتي وجود مثل هذه الوظيفة.

– وهل يحمل البحر عددًا كبيرًا من أمثال هذه الزجاجات؟

– هي قليلة في الواقع.. لكن مهما يكن، فإن هذه الوظيفة موجودة فعلا.. ولصاحبها مكتب ومسكن في مقر الاميرالية.

– وكم يدفعون لصاحب هذه الوظيفة العاطلة؟

– مائة جنيه سنويًا.

– وهل تريد أن تقلقني لمثل هذه القيمة؟

– هي تكفي لكي أعيش منها.

– عيشة المتسول.

– هي تليق لمثلي.

– مائة جنيه.. هذا مبلغ حقير.

– ما يكفي سيدتي دقيقة، يكفيني عاما. هذه فضيلة الفقراء.

– ستكون لك هذه الوظيفة.

وما هو إلا أسبوع حتى تسلم باركلفدرو مقاليد هذه الوظيفة في الاميرالية، وظفر براتبها، بفضل توصيات الدوقة جوشيانا ونفوذ اللورد دافيد.

ليس في الدنيا أقبح من نكران الجميل، ومقابلة الإحسان بالجحود لكن باركلفدرو لم تنقصه هذه الصفة. لم يكن أمام باركلفدرو بعد أن ظفر بإحسان جوشيانا وتمتع بالنعم التي أغدقتها عليه، إلا أن يثأر منها ويكيد لها.

وإذا عرفنا أن جوشيانا كانت جميلة، عظيمة، غنية، قوية، شابة متألقة الصيت.. في حين أن باركلفدرو دميم، ضئيل، معدم، ضعيف طاعن في السن، مغمور.. إذا عرفنا هذا كله وجدنا فيه أسبابًا كافية تحمل باركلفدرو على طلب الثأر من جوشيانا والكيد لها.

لم تكن وظيفة (أمين الموجودات البحرية) من الهوان والتفاهة بالوصف الذي صورها به باركلفدرو أمام جوشيانا.. فإن إنجلترا دولة بحرية، والملاحة هي قوام حياتها، وما يحدث للسفن من الكوارث البحرية هو شغلها الشاغل ومثار اهتمامها الدائم. وكانت الزجاجات التي تدفعها السفن الغارقة إلى اليم تتضمن معلومات ذات قيمة

حيوية كبيرة.

ومع أن هذه الوظيفة ألغيت في ذلك العهد منذ قرن من الزمان، فقد كانت لها قيمتها الحيوية.. وكان صاحبها بمثابة الأمين الذي يؤتي إليه بكافة الزجاجات والأواني والقناني والقوارير التي يقذفها البحر إلى السواحل الإنجليزية.. وله الحق قبل غيره في فتحها والإطلاع على محتوياتها.. ثم ينظمها بعد ذلك ويرتب وضعها.

والواقع أن عادة قذف الزجاجات فوق سطح البحر كانت شائعة في تلك العهود الدينية.. فقد كان يلذ لأولئك الذين يوشكون أن يلقوا حتفهم غرقا أن يبعثوا إلى الأحياء بآخر ما يساورهم من الخواطر والأفكار..

وكان صاحب هذه الوظيفة ينظر إليه بعين الثقة والاعتبار، بعكس ما زعمه باركلفدرو أمام جوشيانا.. فقد كان له حق الدخول إلى القصور الملكية والاتصال بالملك أو الملكة للإفضاء بما يتجمع له من الأنباء الخطيرة والمعلومات ذات الشأن الخاص.. وكثيرا ما كانت تتضمن وصايا رجال على وشك الهلاك، واعترافات بجرائم معينة، وتركات يوصي بها أَصحابها إلى التاج، إلى غير ذلك من الأنباء الهامة الدقيقة..

وهكذا وصل باركلفدرو إلى غايته الأولى.. واقترب من الملكة.

وهذا كل ما كان ينشده ويتوق إليه. كان باركلفدرو يسعى إلى هذا الاتصال لا لكي يبني مجده، بل لكي يكون حيث يستطيع أن يؤذي ويضر وينفث شره وسمومه. كان مخلوقًا دنيئًا يجد لذة في إيذاء الغير ويستمد سعادة من إلحاق الشر بالناس، ولو أحسنوا إليه.

وبعبارة موجزة كانت ملامح وجهه تشف عن خبث طويته ولؤم نفسه. ولم يمض وقت طويل حتى وضع هذا المخلوق قدمه في البلاط.

في الظلام

كان للملكة "أنا" جواسيس يعملون لحسابها. وكان "باركلفدرو" أحدهم. وقد وثقت به ثقة تامة وراح يعمل في الظلام ويدبر المكايد والدسائس ضد الدوقة جوشيانا واللورد دافيد.. كانت جوشيانا معروفة بالكبرياء والاعتزاز بالكرامة. فقرر باركلفدرو أن يضربها في كبريائها، وأن يذل كرامتها. ومع أنه لم يعرف كيف يتوصل إلى هذه الغاية. فإنه ترك للظروف تمهيدها، وانتظر بصبر عجيب سنوح الفرصة الملائمة..

وكانت جوشيانا في كبريائها تجهل وجود هذا الخطر الذي يهددها فقد كانت تحتقر هذا المخلوق، ولا تكاد تشعر بوجوده، فكيف تتوقع الخطر من ناحيته؟ وهكذا كانت تروح وتغدو لاهية ضاحكة أمام هذا الرجل الذي كان يرمقها بخبثه، ويتحين الفرصة المواتية لضربها وإذلالها. ولم يشأ باركلفدرو أن يرسم خطة معينة للكيد للدوقة جوشيانا وتحطيم كبريائها.. فقد رأى أن الظروف قد تخونه، وربما لا تستجيب للخطة التي يرسمها. ولذلك آثر أن ينتظر، حتى إذا سنحت له الفرصة الملائمة تعلق بها ووجهها إلى غايته. وكل ما كان يعنيه الآن هو فحص الميدان الذي يسير فوقه لإدراك غايته. كان هذا الميدان يتمثل في شخص الملكة أنا.. ولذلك راح يبذل كل جهده حتى يوغر صدرها ضد شقيقتها الدوقة جوشيانا.

كانت أنا في الأربعين من عمرها، وجوشيانا في الثالثة والعشرين. وهذا الفارق الجسيم في السن كاف لإثارة استياء الملكة ضد شقيقتها ونفورها منها. وفي أحد الأيام، بينما كانت الملكة خارجة من كنيسة القصر، وباركلفدرو يسير

في ركابها. مر اللورد "دافيد يدري موير" بين صفوف نساء الحاشية. فأثار مروره تعليقات شتى.. وقالت كثيرات:

– ما أرشقه!.. ما أنبله!.. ما أجمله!..

لكن الملكة قالت في تبرم: – ما أسخفه!

سمع باركلفدرو هذا التعليق الأخير. فاستقر عزمه. رأى في وسعه أن يضرب الدوقة جوشيانا دون أن يثير سخط الملكة..

انحلت العقدة.. لكن كيف السبيل لتنفيذ هذه الخطة؟

هذا ما ستكشف عنه الأيام

كان للدوقة جوشيانا حاشية خاصة، من أبرز أفرادها اللورد دافيد وكثيرًا ما كان الاثنان يذهبان إلى المسارح وحلبات السابق والملاكمة معا، في مركبة واحدة، ويجلسان كذلك في مقصورة واحدة. ومع أنهما كانا يمقتان فكرة الزواج الذي فرض عليهما فرضا، فقد كان كلاهما يستريح إلى عشرة صاحبه. وفي إحدى ليالي الشتاء ذهبت جوشيانا مع اللورد دافيد إلى حفلة ملاكمة عقدت في حلبة خاصة.. وكانت جوشيانا ترتدي ملابس الرجال.. وهو زي شائع في ذلك العهد. ولم يستطيع اللورد دافيد بسبب وجوده في صحبة جوشيانا أن يشترك اشتراكًا فعليًا في الحفلة.. ولذلك اكتفى بالوقوف موقف المتفرج.. كان يرأس الحفلة ضيف شرف يدعى "اللورد جرمين". وكان أحد المتبارين أيرلنديًا يدعى "فيليم جيمادون"، والثاني اسكتلنديا يدعى "هلمسجيل". والواقع أن كليهما كان يمثل وطنه. وبعبارة أخرى كانت ايرلندة تنازل اسكتلنده.. ولذلك تضاعفت المبالغ التي راهن بها المتفرجون حتى أربت على أربعين ألف جنيه.

وفجأة وثب هلمسجيل إلى الأمام، ولطم خصمه الضخم لطمة قوية بين

عينيه، فتفجر الدم من وجهه. علا الهتاف.. وأدار فيليم جيمادون ذراعيه في الهواء، وصوب إلى خصمه ضربات لم يحكم تصويبها.. بل ترك مرماها للصدف وحدها.

انحنى هلمسجيل بسرعة ولطم خصمه لطمة قوية في صدره، وارتد إلى الخلف بخفة.. وهتف اللورد "برنارد" أحد النظارة: ضربة غير قانونية!

هوى فيليم جيمادون على ركبة مساعده الذي جفف دمه وعرقه، ودس بين شفتيه فوهة زجاجة بها شراب.

كانت الدورة الحادية عشرة.. وأصيب فيليم في جبهته وصدره، وانتفخت بطنه.. أما هلمسجيل فلم ينله أقل سوء انتهت المباراة بهزيمة هلمسجيل.. وغادرت جوشيانا الحفلة متأبطة ذراع اللورد دافيد وقالت له:

– هذه مباراة بديعة.. لكن..

– لكن ماذا؟

– حسبت أنها ستزيل انقباضي.. لكن خاب ظني.

وقف اللورد وتفرس في وجه جوشيانا قليلا، ثم قال لها:

–لا يوجد سوى علاج واحد للانقباض.

– ما هو؟

– جوينبلان.

فسألت الدوقة:

– ومن هو "جوينبلان"؟

كان جوينبلان مخلوقا له سحنة شاذة خارقة لمألوف الطبيعة، فهو ذو فم

يمتد حتى أذنيه. وأذناه ممتدتان حتى عينيه. وأنف أفطس مسطح ووجه لا يملك من يراه ألا أن يضحك.

لا ريب أن هذه التقاطيع لم تخلق مع وجه صاحبها. وأكبر الظن أن يد الإنسان تناولتها بالمسخ والتغيير في عهد طفولته ، وأن مبضعا جرى في ملامح هذا الوجه، فمطط الفم، وبتر الشفتين، وعرى اللثتين، وأطال الأذنين، وشوه الجفنين والوجنتين، وتكونت من هذا كله تلك السحنة العجيبة، وذلك القناع المدهش، المسمى "جوينبلان".

والواقع أن الإنسان لا يولد هكذا. وقد مسخ جوينبلان عمدًا في صغره لاستدرار الضحك ونفض الحزن والانقباض.

كان جوينبلان مهرجًا مشعوذًا. يطوف الأسواق. ويقف على قوارع الطريق لإضحاك الناس. كان العلاج الناجع للغم والانقباض. كان أصحاب الحداد يتقونه ويهربون منه لكي لا يثير ضحكهم ويفقدهم وقار الحزن. وكل من رآه لا يملك أن يقبض على جبينه من فرط الضحك والقهقهة. وإذا تكلم ارتمى الناس على الأرض يتلوون ضحكا. كانت ضحكة جوينبلان تثير ضحك الناس. لكنه لم يكن يضحك.

صحيح أن وجهه يضحك، لكن نفسه كانت أبعد ما تكون عن الضحك. إن هذه الضحكة قد طبعت على وجهه إلى الأبد.. ولم يكن يستطيع أن يتخلص منها. ولو ساورته دهشة، أو ألم به حزن، أو انتابه غضب، أو هزه حنان.. فما كانت هذه الإحساسات جميعا ألا لتزيد الضحكة المرسومة على وجهه تجسيما.. بل لو أنه بكي لظهر للناس ضاحكا. كان الناس يديرون وجوههم إذا ضحكوا منه.. وكانت النساء على الأخص تنكمش منه رعبا.. فهو مخلوق مخيف. على أنه فيما عدا وجهه كان طويل القامة، متناسق البنية،

خفيف الحركات، ليس في تكوينه من دلائل التشويه والمسخ سوى وجهه.

وفي هذا ما يشعر بأن جوينبلان كان في طفولته مثل غيره من الأطفال، لكن يد التشويه تناولت وجهه فقط وتركت فيه هذه الآثار المروعة. ولم يكن أمام جوينبلان بعد أن فرضت عليه هذه الضحكة فرضا ألا أن يستغلها كما يستغل الإنسان إحدى المواهب.. ولذلك راح يرتزق منها، ويستمد قوت يومه.

ولا ريب أن القارئ قد فهم أن جوينبلان هو ذلك الغلام الذي تركته العصابة وحيدًا على ساحل (بورتلاند) في إحدى ليالي الشتاء، وظل يهيم على وجهه حتى رآه ارسوس في مركبته.

ترعرع هذا الغلام حتى دخل في هذا العهد (عام ١٧٠٥) في دور الشباب.. وناهز الخامسة والعشرين من عمره.

احتفظ ارسوس بالطفلين.. وتألفت من الجميع فرقة متجولة رحالة.. كما شبت الطفلة الصغيرة التي عثر عليها الغلام فوق صدر المتسولة الميتة، وأصبحت الآن في السادسة عشرة من عمرها. كانت ممشوقة القد، نحيلة القوام، كستنائية الشعر، رائعة الجمال، تشع عيناها نورًا.. لكن لا تبصران. والواقع أن تلك الليلة القاسية التي ألقت الأم وطفلتها بين الجليد قد وجهت إليهما ضربة مزدوجة.. فقد قضت على الأم.. وأعمت الطفلة.

كانت دلائل الحرمان من نعمة الأبصار قد طبعت على زاويتي فمها دلائل المرارة والألم ناطقة جلية. كانت لها عينان واسعتان صافيتان لهما خاصية مدهشة.. فهما مظلمتان بالنسبة لها.. لامعتان مضيئتان أمام الناظرين.. عينان تشعان نورًا لا تملكانه. وأطلق عليها ارسوس اسم "ضيا".

أما "جوينبلان" فهو الاسم الذي عرف به الغلام في صغره قبل أن يؤويه

ارسوس، ولذلك لم يشأ ارسوس أن يغيره.. وبقي معروفًا به حتى هذا الوقت.

كانت ضيا تساعد جوينبلان في ألعابه.. ولو تجسم البؤس والشقاء الإنساني.. ما تمثل في أكثر من هذين المخلوقين المنكودين..

كانت ضيا ذاهبة البصر.. خرج الكون عن نطاقها، وانعدم في محيطها وكان جوينبلان ذاهب الوجه.. اختفت معالم سحنته. وطبع على وجهه قناع زائف.. حجب هذا الوجه الذي لم يره ولم يعرفه، إلى الأبد.. كان كلاهما يعيش بلا أمل.. في هوة من الشقاء والبؤس، ولو راقبهما إنسان عن كثب لذاب فؤاده وفاضت نفسه ألمًا ورثاء لهما، والواقع أن الأقدار قد كتبت عليهما العذاب الأبدي وأحالت كيانهما جحيمًا مؤلمًا.. على أنهما كانا برغم ذلك في جنة السعادة والغبطة.

كانا متحابين.. كان جوينبلان يعبد ضيا. وكانت ضيا تقدس جوينبلان، وتقول له: "ما أجملك!".كانت ضيا هي المرأة الوحيدة في العالم التي تحس بوجود جوينبلان، فقد علمت من ارسوس أن جوينبلان أنقذ حياتها. وأنه كان طفلًا لم يجاوز العاشرة. منبوذًا من الناس. محرومًا من العطف والعون.. مستهدفًا لغضب الطبيعة وعناصرها القاسية. في ليلة سوداء غابت نجومها وفاضت سماؤها بالجليد الذي يهرأ الأجسام. ممزق الأسمال.. طاوي البطن جوعًا وعطشًا.. مهدم القوى، وحيدًا، شريدًا، طريدًا ولكنه مع هذا كله استخرجها من تحت الجليد، واحتمل عبئها وهو لا يكاد يقوى على جر قدميه. وهام بها على وجهه في هذه الظروف القاسية، ولم يتخل عنها حتى وصل بها إلى كوخ ارسوس.

علمت ضيا كل هذا. وأدركت أن جوينبلان هو باعثها من العدم منقذها من الموت. ففاضت نفسها شكرًا وامتنانًا. وطوت ضلوعها على محبته وتمجيده. كان جوينبلان في نظر الناس مهرجًا، فالناس لا يأخذون إلا بالظواهر.. لكنه

كان عند ضيا منقذها من القبر. مواسيها في الشقاء. هاديها في ظلمات العمى.

كان جوينبلان لها أخا، وصديقا، وهاديًا، ونصيرًا. كان الناس يرون فيه بأعينهم مسخًا مشوهًا. أما ضيا فكانت تأنس فيه ببصيرتها ملاكًا رحيمًا.

وكان جوينبلان يدرك أنه كائن منكر الوجه، مخيف السحنة بشع المنظر، لكنه مع ذلك موضع حب ضيا وعبادتها. ومن هنا نشأ حبه لها.. واتحد هذان القلبان المعذبان. وأصبحا روحًا واحدة في جسدين.. وكان ارسوس من ناحيته بمثابة الأب والأم لهذين المخلوقين، فقد كان يتبرم ويسخط في الظاهر. لكنه رباهماوأطعمهما. وكان يضطر أحيانًا إلى جر المركبة جنبا لجنب مع الذئب هومو.. على أن جوينبلان ما كاد يشتد عوده حتى أخذ بدوره يشترك في جر المركبة مع الذئب حاملًا ارسوس وضيا.

كانت حياة هذه الأسرة المتحدة، العجيبة سلسلة من التنقل والترحال.. لكن ذلك لم يعق ارسوس عن تعليم جوينبلان كل ما يعرفه من فنون العلم والحكمة. وعلمهما إلى جانب ذلك الغناء.. وكان يتولى العزف بالآلات موسيقية غريبة.

الرخاء

في ليلة شتوية من عام ١٧٠٤، دخلت إحدى القرى الساحلية مركبة ضخمة يجرها جوادان. كانت المركبة ذات لون أخضر. ولذلك أطلق عليها الناس اسم (المسرح الأخضر).. وكانت لها نافذتان في جانبيها، وباب خلفي ذو سلم متحرك، ومدخنة في أعلاها.. وكان يجلس في مقعد في مقدمة المركبة، وخلف الجياد، سائق كهل، عن يمينه وشماله امرأتان من النور تدقان الطبول.. ويجري أسفل المركبة حيوان عجيب يتراوح شكله بين الكلب والذئب كانت هذه المركبة هي كوخ ارسوس القديم، وقد استحالت مسرحًا متنقلًا دائم الجدة بفضل نجاح جوينبلان. فإن الغلام ما كاد ينمو ويشب حتى أظهره ارسوس للناس.. فأحدث ظهوره أمامهم دهشة وذهولًا. ولم يروا من قبل مثل هذه السحنة العجيبة التي تضحك الثكلي. وكان جوينبلان لا يحل في مكان إلا هرع الناس إليه وتراكضوا خلفه. ولذلك تدفقت النقود على ارسوس واتسع نطاق عمله. وراح يتنقل بمركبته العجيبة من مكان إلى مكان، ومن قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة.. وكلما نما جوينبلان نمت ثروة ارسوس وزاد يسره ورخاؤه.. وتهيأ له بذلك أن يجدد المركبة ويجعل منها مسرحًا متنقلًا لإظهار مختلف الألعاب والفنون، وابتاع الجوادين، واستخدم النوريتين.. وكانت كلتاهما صغيرة السن قبيحة المنظر.. أطلق ارسوس على إحداهما اسم "فيبي" والثانية اسم "فينوس" وكان عملهما ينحصر في دق الطبول وخدمة الفرقة.

وكانت المركبة مقسمة ثلاثة أقسام تفصلها ستائر مدلاة.. فالقسم الخلفي خاص بالرجال.. والأمامي للسيدات.. والأوسط أقيم فيه المسرح.. وفي جانب المركبة الأيسر (في قسم المسرح) أنشئ باب متحرك كان يدلي بسلاسل، ويستقر فوق الأرض على قوائم خشبية موازيًا لقاعدة المركبة، فيتكون منه ومن

أرض المسرح مسطح رحب، هو خشبة المسرح..

وكان الجمهور يقف في الطرقات أمام هذا المسرح العجيب معرضًا للشمس والمطر.. وأحيانًا كان المسرح ينصب في فناء خان أو حانة، ويقف الجمهور من النوافذ كأنه في مقاصير خاصة.. وكان ارسوس يقوم بجميع الأدوار.. يعزف على آلاته الموسيقية ويمثل.. ويقلد أصوات الإنسان والطير والحيوان.. ويتكلم من بطنه.. وكانت فينوس تدق الطبول وتقذف الهروات ببراعة مدهشة.. وفيبي تعزف على القيثار.. وهومو يقلد الإنسان المهذب.. أو يقف أحيانًا إلى جانب ارسوس الذي يلتف بجلد الدب.. فيتعذر على الشاهد أن يفرق بين الإنسان والحيوان..

ومن هنا كان النجاح المتزايد.. كان الجمهور يتراكض خلف جوينبلان ويقصد إليه من كل مكان.. حتى ذاع صيته.. واشتهر شخصه. كان اسم جوينبلان مكتوبًا على لوحة رفعها ارسوس في مقدمة المركبة، مصدرًا بهذه الجملة:

"هنا تشاهد جوينبلان الذي تركه تجار الأطفال وحيدًا في سن العاشرة، في ليلة ٢٩ يناير ١٩٦٠، على ساحل بورتلاند. وهو الآن في سن الشباب ويدعي (الرجل الضاحك).

وكان طواف (المسرح الأخضر) مقصورًا على القرى والبلدان الصغيرة.. على أن شهرة جوينبلان كانت تتزايد. وأخذ صيته يجاوز هذه الدوائر المحدودة. وعلم الذين يعشقون الخوارق والعجائب ويفتشون عنها في كل مكان أن هناك مخلوقًا خارقًا وكائنًا شاذًا، دائم التنقل والطواف. وراحوا يبحثون عنه ويتساءلون عن مكانه. واشتهر (الرجل الضاحك) شهرة واسعة، حتى أن ارسوس استسلم ذات يوم لمطامعه، وقال لجوينبلان وضيا:

– لابد من ذهابنا إلى لندن.

الخطيب

كان في لندن في ذلك العهد جسر واحد معروف باسم (جسر لندن). وكان يصل العاصمة بضاحية (سوثوارك) وهي ضاحية ذات شوارع ضيقة ومسالك متشابكة. لها ملعب فسيح يسمى (ميدان تارنزو). يغص في جميع الأوقات بالحواة والمشعوذين والمهرجين والموسيقيين والمصارعين.

وأنشئت حول هذا الميدان حانات كثيرة هي عبارة عن مقاصير خشبية يغشاها الجمهور نهارًا وتقفر ليلًا. ولم يكن هناك سوى خان واحد يسمى (خان تادكاستر)، له فناء فسيح.. وصاحبه يدعي "نيكلس"، وهو رجل يخاف سطوة القانون، وكان يستخدم غلامًا في الرابعة عشرة من عمره يسمى "جوفكوم" لخدمة الزبائن، وكان ينام في جحر في الدور الأرضي له فتحة تطل على الملعب.

ففي إحدى ليالي الشتاء القارصة البرد اللافحة الهواء سنة ١٧٠٥، كان رجل في ملابس بحار يسير في ميدان(تارنزو) ولما وصل إلى خان (تادكاستر) وقف فجأة على أثر سماعة صوتًا يتكلم في الملعب المجاور.كان صوت رجل متقدم في السن، غير أنه يصل قويًا واضحًا إلى أسماع السائرين في الشارع. وكان يتخلله أحيانًا ضجيج أفراد الجمهور.

قال صاحب الصوت:

– يا رجال لندن ونساءها. هاأنذا جئت إليكم.. أني أبيع عقاقيري وأفكاري. تقدموا مني وأسمعوني، العلم يناديكم، أن معي زميلًا سيضحككم، أما أنا فسأجعلكم تفكرون، أني آخذ على عاتقي مهمة تنظيف عقولكم وشحذ أذهانكم.

اسمحوا لي قبل كل شيء أن أعرفكم بأسرتي. هؤلاء هم الفنانون المتحدون! نحن

أربعة. وسأبدأ بصديقي. هو ذئب وهو يحاول أن يخفي هذه الحقيقة، أنظروا إليه، هو مهذب، رزين حكيم.. هو محسن شديد التواضع، لا تعرف مخلبه اليمنى ما تحسن به اليسرى.

أما صديقي الآخر، فلن أقول عنه سوى كلمة واحدة، هو مشوه، وستعجبون به، وقد هجره القراصنة في الماضي وتخلوا عنه على شاطئ المحيط. وزميلتي الثالثة عمياء. أن زميلتنا العمياء مخلوقة مباركة.. وفي اعتقادي أنها ابنة أحد الملوك، وأن كنت لا أجزم بهذه الحقيقة.

سيداتي سادتي.. انتهى كلامي، وسيبدأ التمثيل..

لم يكد الرجل المرتدي الملابس البحار يسمع هذه الخطابة، حتى دخل الخان، ودفع رسم الدخول، ووصل إلى الفناء الذي رآه مكتظًا بالجمهور وشاهد فيه مركبة تتصل بها منصة متحركة وقف فوقها كهل في جلد دب، شاب له قناع المهرجين، وفتاة عمياء، وذئب.

فلم يتمالك أن هتف: يا إلهي!.. ما أظرف هذه الفرقة..

وصل (المسرح الأخضر) إلى لندن.. واستقر في ضاحية (سوثوارك).. في ميدان (تارنزو).. مقر المشعوذين.

أعجب ارسوس بخان (تادكاستر) كان الفناء محوطًا بواجهات الخان الداخلية الثلاث، وفي الجانب الرابع جدار استقر تجاهه (المسرح الأخضر).

كانت أمام الدور الأول شرفه مستديرة قائمة على أعمدة يغطيها سقف خشبي، تمتد في الواجهات الثلاث.

وهكذا وجد ارسوس أمامه مسرحًا طبيعيًا.. مساحته أرض الفناء ومقاصيره نوافذ الدور الأرضي والشرفة.

وعلقت على مدخل الخان لوحة تحمل اسم (جوينبلان، الرجل الضاحك).. ووضع حاجز عند مدخل الفناء كانت تجلس أمامه فيبي وفينوس لجمع رسم الدخول.

وأقيمت في وسط الشرفة، أمام المسرح مباشرة، مقصورة خاصة للأعيان تسع عشرة أشخاص في صفين.. وجلبت لها أحسن مقاعد الخان، ووضع في الوسط مقعد ذو ذراعين من المخمل.

وما كادت الحفلات تبدأ حتى تقاطرت أفواج الجماهير.. لكن مقصورة الأعيان بقيت خالية.. وفيما عدا ذلك فقد كان النجاح تاما، ولم تشهد سوق التهريج والشعوذة مثل هذا التوفيق.. وهرعت (سوثوراك) كافة لمشاهدة (الرجل الضاحك)..

ارتاع مشعوذو ودجالو (تارنزو) من ظهور جوينبلان.. فقد كان نزوله بينهم كانقضاض صقر في قفص عصافير والتهامه حبات طعامها.. وبعبارة أخرى أن جوينبلان التهم جمهور المشعوذين واستأثره دونهم.

وامتاز بين جمهور المشاهدين الذين كانوا من الطبقات الفقيرة المغمورة رجل طويل القامة قوي البنية مظهره أقل فقرًا من غيره، وكان يبدى حماسة شديدة ويعرب عن إعجابه بالهتاف والتصفيق، ولم يكن يتردد أحيانًا في استخدام قبضته وشق طريقه بالقوة إذا زاحمه مزاحم أو ضايقه أحد..

كان هذا الرجل هو البحار الذي سمع ارسوس يلقى خطبته المشهورة وقد بلغ من تحمسه (للرجل الضاحك) أنه كان يتزعم الجمهور في الهتاف له وإبداء الإعجاب به.. ولم تفت هذه الحماسة ارسوس ولا جوينبلان. ووجدا في هذا الزائر المجهول صديقًا مواليًا كبيرًا.

وانتهز ارسوس ذات ليلة وجود نيكلس صاحب الخان بقربه.. فأشار بيده

إلى الرجل المجهول واستفسره عنه قائلًا:

_ هل تعرف هذا الرجل؟

_ بالطبع.

– من هو؟

– بحار.

فقاطعه جوينبلان قائلًا:

–ما اسمه؟

فأجاب صاحب الخان:

– اسمه "توم جيم جاك".

وعلى الرغم من هذه الشهرة التي أحرزتها الفرقة، فقد بقيت على عزلتها. ولم يحاول أحد من أفرادها الاتصال بالنازلين في الخان. واعتاد جوينبلان كل ليلة بعد انتهاء الحفلات وتناول العشاء وذهاب ارسوس وضيا كل إلى فراشه الخاص، أن يتمشى قليلًا في فضاء الملعب لاستنشاق الهواء. فيما بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل.

وفي هذا الوقت كانت الحانات الموجودة في الملعب تغلق أبوابها ويقفر المكان من أفراد الجمهور، وهكذا كان جوينبلان يخلو إلى نفسه في هذه العزلة الهنيئة، راضيًا، مغتبطًا، سعيدًا.. مستسلمًا لأفكاره الخاصة. كان يفكر في ضيا، وما كان يطيق فراقها لحظة واحدة.. وكأنه مقيدًا أمامها بقيد غير منظور حتى إذا أتم جوينبلان جولته عاد إدراجه إلى (المسرح الأخضر).

الحقد

لا يثير حفيظة الإنسان وحقده سوى النجاح، ولاسيما لمن يخطئهم التوفيق ويجانبهم الحظ. انتصر (الرجل الضاحك) انتصارًا باهرًا.. فأهاج انتصاره كوامن الغيظ والغضب في صدور المشعوذين.. وكان تدفق النقود في صندوق ارسوس يقابله تناقص مماثل عند أرباب الفرق الأخرى.

حاولوا أن يفسدوا نظام الحفلات التي يقيمها ارسوس بأحداث الضجة والصفير والأصوات المزعجة.. لكن توم جين جاك صدهم عن الفرقة بقوته وضرباته.. ولما يئسوا من القضاء على مزاحمة جوينبلان لم يجدوا ألا أن يشكوه للسلطات المسئولة لتنحيته عن الطريق. وانضم رجال الدين إلى هذه الحملة التي قام بها المشعوذين الحاسدون ضد جوينبلان وفرقته.. فقد تركهم الناس وانصرفوا عنهم لمشاهدة الرجل الضاحك وأقفرت الكنائس من روادها. واتخذت الحملة ضد ارسوس وفرقته صبغة دينية.. وقامت على اتهام ارسوس بالسحر والإلحاد.. واستندت إلى أن وجود ذئب مما يحرمه القانون الإنجليزي.. وكادت تفلح. لولا أن شيئًا واحدًا أوقفها.

كان (المسرح الأخضر) هو التسلية المعبودة عند أهل (سوثوارك) وما دامت (سوثوارك) راضية فلا سبيل إلى تدخل القانون في شأن ارسوس وفرقته ولو وقف ضده الأساقفة والحكومة بأسرها. وتلك هي فضيلة الحياة الإنجليزية وقوام حرية الإنجليز.

ولكن حدث في أحد الأيام أثناء إحصاء دخل إحدى الحفلات، وكان صاحب الخان موجودًا، أن تناول جوينبلان شلنا مرسومًا عليه صورة الملكة

"آنا"، وبدت منه بعض عبارات شديدة اللهجة في تصوير فاقة الشعب في عهدها. أهاج هذا النقد سخط ارسوس، فقد خاف أن ينقله صاحب الخان إلى السلطات المسئولة ويورط ارسوس وفرقته فيما يكره. ولذلك لم يكد نيكلس ينصرف حتى جذب ارسوس جوينبلان من ذراعه، وأخذ يعنفه قائلًا:

– أغلق فمك الكريه! ليس للفقير إلا أن يلزم الصمت. وأن يرضى بما قسم له، ومهما فعل بنا الأغنياء، فعلينا أن نذعن، ولو حطموا رؤوسنا والواقع أن ارسوس لازمه القلق فترة من الزمن بسبب هذا الحادث وأن بقى جوينبلان مطمئنًا ولم يحفل بشيء. فإن اندفاع الشباب ناشئ من قلة الخبرة..

ومهما يكن، فقد مر الحادث بسلام. وانقضت الأيام والأسابيع دون أن يحدث ما يكدر بسبب هذه الملاحظات التي بدت من جوينبلان. كان ارسوس شديد اليقظة، يراقب كل شيء.

وذات يوم. بينما كان يطل من النافذة المشرفة على الميدان امتقع وجهه فجأة. ونادي جوينبلان قائلًا:

–جوينبلان. انظر

– أين؟

– في الميدان.

– حسنا.

– هل ترى ذلك السائر؟

– ذو الملابس السوداء؟

– نعم..

– ما شأنه؟

هذا الرجل يا جوينبلان هو (الضابط الأسود).. وهو أفظع رجال القانون.

– وما هذا الذي بيده؟

– القضيب الحديدي..

– وما هو القضيب الحديدي؟

– هو أداة من الحديد..

– وماذا يفعل به؟

– يلمسك به..

– وما معنى هذه الحركة؟.

– معناها أنك تتبعه في الحال.

– إلى أين؟

– وكيف أعرف؟

– ولكن هل يخبرك إلى أين يذهب بك؟

– لا..

– وكيف ذلك؟

– هو لا يتكلم وأنت لا تتكلم

– لكن..

– هو يلمسك بالقضيب الحديدي.

فينتهي كل شيء.. وعليك أن تتبعه..

– لكن إلى أين؟

– إلى أي مكان يشاء يا جوينبلان..

– وإذ عصيت؟

– تشنق!

وتطلع ارسوس من النافذة ثانية. وما لبث أن تنفس الصعداء. وهتف:

– شكرا لله!. ابتعد.. لم يكن قاصدًا إلينا..

والواقع أن ارسوس كان لا يزال شديد القلق من جراء الملحوظات التي تفوه بها جوينبلان. لكن تبين أن قلقه قام على غير أساس.. فإن نيكلس صاحب الخان لم يكن من مصلحته أن يؤذي أصحاب (المسرح الأخضر) بعد أن سمع عبارات جوينبلان.. فقد كان يجمع ثروة لا بأس بها بسبب امتلاء حانته بالزبائن الوافدين من كل مكان لمشاهدة (الرجل الضاحك)..

كان المسرح يمتلئ كل ليلة بالجمهور المتحمس.. ولم يبق مكان خال سوى مقصورة الأعيان.. لكن هذه المقصورة شغلت ذات ليلة.. فقد رفع الستار في إحدى ليالي السبت حيث يكتظ المسرح بأفراد المشاهدين، وبينما كان ارسوس وهومو وجوينبلان على خشبة المسرح استعدادًا للتمثيل، ألقى ارسوس نظرة على الجمهور الحافل.. فأحس بانفعال شديد.. ورأى مقصورة الأعيان مشغولة.. فقد جلست سيدة في المقعد المخملي وحدها وكانت ذات بهاء وابهة وفخامة كسفت كل ما حولها. وسيطرت على عناية الجمهور الحاشد الذي راح يتطلع إليها مأخوذًا مذهولًا.. وفي جملتهث توم جين جاك..

راقبها جوينبلان. كما راقبها ارسوس. وكان يقف خلفها في المقصورة وصيف نحيل الجسم يرتدي ثوبًا من المخمل القرمزي، وتزين رأسه طائفة من

الريش المقوس، وهي دلالة تشير إلى مركز السيدة الرفيع في الهيئة الاجتماعية. وكان لوجود هذه السيدة تأثير الكهرباء في الجمهور وفي الفرقة.. فقد بلغ الممثلون القمة في الإجادة والإتقان. ولم يضحك أفراد الجمهور مثلما ضحكوا هذه الليلة. وكانت ضحكات توم جيم جاك تدوي ملء الأسماع. على أن السيدة النبيلة كانت وحدها تشاهد التمثيل في جمود التمثال ولم تشترك في الضحك والطرب والمرح والبهجة التي كانت تنبعث من كل مكان.. وما كادت الحفلة تنتهي وترفع خشبة المسرح ويجمع شمل العائلة حتى فتح ارسوس صندوق الدخل ونثر محتوياته فوق الطاولة. وسرعان ما لفت نظره جنية ذهبي بين القطع الفضية. فهتف في تحمس شديد:

– هذا منها! دفعت جنيها لمشاهدة الحفلة..

وفي هذه اللحظة دخل صاحب الخان. وأشار لهم أن ينظروا من النافذة المطلة على الميدان، فشاهدوا مركبة يحوطها طائفة من الخدم حاملي المشاعل وكانت تسير بسرعة. وقال نيكلس:

– هي إلهه. هي دوقة!

اختفت المركبة عن الأنظار في منعطف الطريق. ووقف ارسوس لحظة مشدوها يقلب الجنية الذهبي بين يديه وهو لا يكاد يصدق عينيه. ثم وضعه على الطاولة. وأخذ يتحدث مع صاحب الخان عن السيدة العظيمة.

قرر صاحب الخان أنه شاهد المركبة عن كثب. ورأى من دلائل الأبهة والفخامة ما بهر نظره. وكان جوينبلان لا يشترك في الحديث وضيا تصغي صامتة.

وقال صاحب الخان:

–وهل عرفت أعجب شيء في هذا الشأن؟

فقال ارسوس:

– وما هو؟

– أنها لم تدخل المركبة وحدها.

– كلام فارغ.

– ركب معها شخص.

– من هو؟

– خمن.

– تكلم.

– هو توم جيم جاك.

لم يكن جوينبلان قد فاه بكلمة حتى هذه اللحظة. فما كاد يسمع هذا الاسم حتى هتف، توم جيم جاك!.

ساد صمت حافل بكل معاني الدهشة. وما لبثت ضيا أن بددته قائلة: ألا يمكن منع هذه المرأة من الحضور؟

أعراض الفساد

لم تظهر السيدة المجهولة بعد في المسرح، لكنها كانت تطوف بخيال جوينبلان.. اضطرب جوينبلان إلى حد ما. فقد خيل إليه أنه رأى امرأة لأول مرة في حياته. وتذكر في ذلك الوقت ما كان ارسوس يردده في سمعه عن حياة الأغنياء والأشراف. وتعلقت أفكاره بذلك المحيط الرائع الذي تنتمي إليه تلك السيدة. الذي يستوي شاهقًا فوق دنياه الوضيعة التي هو منها.

أحس نحو هذه المرأة باشتياق غريب غامض، يخالطه اقتناع باستحالة الوصول إليها، وكان هذا الشعور المزدوج المتناقض يزداد إلحاحًا عليه كلما حاول طرده من ذهنه والتخلص منه.

كان لا يرى خيالها قربه، حتى يخيل إليه أنه يكاد يمسكه بيديه. أنا شخصها فكان أبعد عنه من النجوم على أنه مع ذلك لم يكن يطمع، حتى في عالم الأحلام، أن يتسامى إلى المحيط الشاهق الذي تحلق فيه الدوقة.

وفوق هذا فقد كان في حكم المحقق أنه لن يرى تلك السيدة بعد، ومن الجنون أن يعشق الإنسان شهابًا عارضًا يمر في الأفق.

على أن الخواطر مع ذلك كانت تدور برأسه وتثير في نفسه مختلف الانفعالات.. وكان يحس في أعماق قلبه بتيارات متضادة متنافرة..

تطاحنت في نفسه غريزتان.. غريزة سامية.. وغريزة جنسية.. أو هو صراع بين ملائكة النور.. وشياطين الظلام.

وأخيرًا هزمت شياطين الظلام.. وفجأة نفى جوينبلان من ذهنه ذات يوم خيال المرأة المجهولة.. لم يكن جوينبلان في الظاهر يفطن إلى هذا الصراع بين

طبيعته الأرضية وطبيعته السماوية.. لكن هناك شيئًا واحدًا لم يكن يرتاب فيه.. وهو أنه لم ينقطع لحظة واحدة عن التفكير في ضيا وتقديس حبها.

انتابته حمى أحدثت ثورة في نفسه.. لكنها تلاشت، وبقيت ضياء وما هي إلا بضعة أيام حتى ذاب ذلك الخطر الذي كان يهدد هاتين الروحين. وفوق ذلك فإن (الدوقة) لم تعد مرة ثانية كما تقدم.

ورأى ارسوس في عدم عودتها شيئًا طبيعيًا، وشبهها بالشهاب الذي يبرق مرة واحدة ثم يختفي إلى الأبد.

أما ضيا فإنها لم تعرض بكلمة إلى هذه المرأة التي ظهرت واختفت. وكان سكوتها أبلغ دلالة على غريزة المرأة التي تحس بالخطر، وتتحاشى جهدها أن تثير ذكره حتى لا يتجدد ويؤلم، وهكذا توارى هذا الحادث في زوايا النسيان.

اختفى وجه آخر.. ذلك هو "توم جيم جاك" الذي انقطع فجأة عن الحضور إلى خان (تادكاستر). ولو كان أصحاب (المسرح الأخضر) ممن يتبعون أنباء الطبقة الراقية، لطالعوا في الصحف حوالي هذا الوقت نبأ رحيل اللورد دافيد ديري موير بأمر جلالة الملكة لتولي قيادة إحدى الطرادات المسافرة إلى سواحل هولندا، ولم يلبث ارسوس أن ساوره القلق من غياب توم جيم جاك. فإنه لم يره منذ ركب مع السيدة العظيمة. وراح يفكر في شخصية هذا الرجل الذي يطوي الدوقات تحت ذراعه. على أنه لزم الصمت ولم يقل شيئًا..

أما جوينبلان فقد نسي كل شيء. ولم يعد يذكر سوى ضيا وحدها. وكانت ضيا من ناحيتها لا ترتاب في شيء ولا يساورها أدنى قلق..

وفي نفس الوقت هدأت الضجة التي أقامها الحاسدون ورجال الدين ضد الفرقة، بعد أن يئسوا من الكيد لها.. وأخلوا لها الميدان.

وكان صيت (الرجل الضاحك) يزداد انتشارًا، حتى تجاوز ضاحية (سوثوارك).. ووصل إلى قلب لندن.. ولم يعد المشاهدون مقصورين على الفقراء وحدهم، بل كان يخالطهم جمهور من أهل اليسر وأصحاب الألقاب يتغلغلون في صفوف العامة متنكرين كأنهم منهم.

وفي إحدى الليالي خرج جوينبلان بعد انتهاء الحفلة وراح يتمشى في الميدان كعادته وحيدًا مستسلمًا لأفكاره الخاصة.. وكان المكان مقفرًا من المارة، مطفأ الأنوار فيما عدا مصباحًا ضئيلًا يبدو من خلال باب الخان الذي ترك مفتوحًا حتى عودة جوينبلان.

كانت إحدى ليالي الربيع الحافلة بكل معاني الشعر والجمال. وأخذ جوينبلان يسير منشرح الخاطر مبتهج النفس ثملًا بخمرة الحب والسعادة.كان يتنقل بخطوات بطيئة وقد أطرق برأسه وشبك يديه خلف ظهره.

وفجأة أحس بشيء يدس فوق أصابعه التفت حوله بسرعة.. دست في يده ورقة.. ورأى أمامه رجلًا. كان الرجل قد جاء خلفه بخفة القط ووضع الورقة بين أصابعه.

أما الورقة فهي رسالة.. وأما الرجل فقد رأى فيه جوينبلان شابًا نحيل القامة يرتدي ثوبًا من المخمل القرمزي ويلبس قلنسوة يزينها ريش زاه جميل. وعرف فيه جوينبلان وصيف الدوقة، وقبل أن يفوه جوينبلان بكلمة واحدة، تلكلم الوصيف بصوت تمتزج فيه الطفولة والأنوثة، قائلًا:

– انتظر عند نهاية جسر لندن غدا في مثل هذه الساعة وسأكون هناك لمرافقتك.

فسأله جوينبلان:

– إلى أين؟ إلى حيث ينتظرك شخص معين.

– ألقى جوينبلان نظرة على الرسالة التي كانت بين أصابعه ولما رفع رأسه لم يجد الوصيف أمامه.. ورآه يبتعد عنه في الظلام. وما هي إلا لحظات حتى اختفى في منعطف الطريق.. وبقى جوينبلان وحده كما كان، جعل جوينبلان ينظر إلى الرسالة في ذهول. ثم رفعها إلى عينيه كأنما يحاول أن يتلوها.. لكنه لم يستطع لسببين.. الأول أن الرسالة كانت مغلقة. والثاني أن الظلام كان حالكًا.. مرت بضع دقائق قبل أن يتذكر أن هناك مصباحًا في الخان.. فسار قليلًا كالحالم الذي يسير في نومه. استجمع أفكاره آخر الأمر. وأسرع إلى الخان. ووقف في الضوء المنبعث من خلال فتحة الباب. وأخذ يفحص الرسالة المختومة.

لم يجد شعارًا على الختم. وكتب على الغلاف هذا العنوان: (إلى جوينبلان).. فأزال الختم.. وفض غلاف الرسالة وبسطها وطالع فيها ما يلي: "أنت مخيف، وأنا جميلة، أنت مهرج، وأنا دوقة. أنا سامية، وأنت وضيع. أنا أشتهيك!. أنا أحبك!. تعال.".

الضابط الأسود

تلي جوينبلان الرسالة مرات ورأى عبارة (أنا أحبك) واضحة لا ريب فيها. فأخذت الخواطر المروعة تتسابق في ذهنه.

اعتقد أول الأمر أنه مجنون فاقد الصواب. وأن ما رآه ليس إلا أخيلة شيطانية تراقصت أمامه وعبثت به ثم تلاشت في الظلام على أنه أيقن أخيرًا والرعب يملأ نفسه أن ما رآه ويراه هو حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها. فها هي ذي الرسالة بين يديه، وها هو ذا يطالع كلماتها ويرى اسمه رأى العين مكتوبًا على غلافها.

استعرت النار في وجدانه، وعادت إلى خياله ذكرى تلك المرأة ملتهبة جنونية. بعد أن خيل إليه أنه نسيها ونبذها إلى الأبد.

كيف حدثت هذه المعجزة!. هي تشتهيه!. ها قد هبطت الأميرة عن عرشها، وانحدر الصنم المعبود من محرابه، انحنى إلى حيث يوجد جوينبلان!. هذه معجزة تفوق حد الأحلام!. أصبح جوينبلان معشوقًا بسبب قبحه ودمامته!. لم تعشقه فقط.. بل هي تشتهيه!

لم تقبله على علاته. بل سعت إليه واختارته!

لم يكن أنسب من هذا الظرف لإغراء جوينبلان واستثارته. فقد كان الفصل ربيعًا تتفتح فيه كوامن النفوس وكان الليل ساجيًا تسبح في هدوئه المهج والأرواح. وجوينبلان بعد هذا شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين. اهتز جوينبلان في أعماق نفسه. إن للرذيلة دخانًا خانقًا سبق قدومها، فيعمي الضمير والوجدان في كثافة. وترنح جوينبلان تحت هذه الضربة الخفية. ألفى نفسه

فريسة لصراع هائل بين الأقدام والأحجام. والقبول والرفض! والفضيلة والرذيلة. كان الجسد يدفعه إلى الأمام صائحًا: (نعم). وكانت الروح تقصيه إلى الخلف وتهتف في سمعه: (لا).

سرت في جسده رعدة. رأى أمامه هوة سحيقة تغفر فاها. فلم يتمالك أن أغمض عينيه. وحاول جهده أن يوهم نفسه بأن هذه المغامرة ليست إلا حلمًا من الأحلام. وأنه مجنون فقد رشده ولم يعد يعقل أو يفقه شيئًا..

وفجأة أحس بأنه لم يعد يفكر. واختلط كل شيء في ذهنه حتى لم ير حوله سوى الظلام.ثم تذكر أنه لم يدخل الخان بعد.. وأن الوقت قد تجاوز الساعة الثانية صباحًا. ففرك الرسالة بين أصابعه ودسها في جيبه، وتسلل إلى داخل الخان كاللص، حيث وجد الخادم "جوفكوم" نائمًا ملقى الرأس والذراعين فوق طاولة في انتظار قدومه. فلم يشأ أن يوقظه. وأغلق الباب خلفه وقصد في خفة وسكون إلى المركبة. فارتقى درجاتها وذهب إلى فراشه، بيد أنه لم ينم.

مضت ساعة، ثم خيل إليه أن الاستلقاء يجلب النوم... فتمدد بملابسه فوق الفراش، وحاول أن ينام.

بزغ الفجر. وسمع ارسوس ينهض من فراشه، لكنه لم يفتح عينيه، ولم تفارقه هذه الثورة العاطفية الجائحة التي طغت على وجدانه. وبقيت الرسالة بارزة أمام عينيه.

وفيما هو في عذابه واضطرابه، سمع فجأة ارسوس يقول له:

– هل أنت نائم يا جوينبلان؟

فتح جوينبلان عينيه منتفضًا، وجلس في فراشه.

رأى ضيا واقفة في مدخل الباب، تشرق في عينيها وعلى فمها ابتسامتها

العذبة.. وقفت في مكانها يحوطها نور ملائكي ويشع حولها الطهر والصفاء.

راقبها جوينبلان منتفضًا. مبهورًا. ثم استيقظ من محنته.

أحس في أعماق نفسه فجأة بتلاشي العاصفة وخمود الثورة وانقشاع ظلمات الشر أمام أنوار الخير.

بددت هذه الفتاة العمياء بمحض وجودها أمامه كافة الظلام الذي كان يغمره. وتورت السحب من سماء نفسه كأنما فرقتها يد غير منظورة، فعادت إلى زرقتها وصفائها.

وهكذا عاد جوينبلان في لحظة بفضل هذا الملاك إلى طهر نفسه وبراءته..

تمت المعجزة. وما هي إلا بضع دقائق حتى جلسوا للإفطار في القسم الأوسط من المركبة، حيث كانت ضيا مولية ظهرها إلى ناحية الباب..

صب جوينبلان الشاي في قدح ضيا، فراحت تنفخ فوقه برفق ووداعة. وفجأة أخذت تتشمم الهواء. فقد أحرق جوينبلان رسالة الدوقة في لهب المصباح. وارتفع منها عمود رقيق من الدخان نفذت رائحته إلى أنف ضيا.

سألته: ما هذا؟

فأجاب جوينبلان: لا شيء.

وابتسم راضيًا مغتبطًا. فقد أحس بأنه تخلص من شر كبير.

أخذ الاثنان يتناغيان كالأطيار. فقالت: هل تعلم يا جوينبلان أني حلمت أننا في صورة الحيوان، ولنا أجنحة.

فغمغم جوينبلان: أجنحة!. هذا معناه طيور.

فزمجر ارسوس قائلًا: يا للحماقة والجهل! هذه صورة الملائكة.

استطردت ضيا: هل تعرف يا جوينبلان ماذا كان يجري لو أنك لم توجد؟

– ماذا؟

– كانت الدنيا تكون والعدم سواء.

– إن الشاي ساخن يا ضيا. احترسي لئلا تلهبي فمك.

– انفخ فوق قدحي.

– ما أجملك هذا اليوم يا ضيا!

– هل تعرف أن عندي أشياء كثيرة أحب أن أقولها لك؟..

– تكلمي..

– أنا أحبك..

– وأنا عبدك..

وأدار ارسوس رأسه وقال بصوت خافت:

– هؤلاء عشاق مؤدبون!

رأى ارسوس رجلًا واقفًا في مدخل الباب خلف ضيا.كان مرتديًا ثوبًا أسود. وفوق رأسه شعر مستعار مرجل. وفي يده قضيب قصير من الحديد ينتهي عند طرفيه.

أحس ارسوس بدخول شخص من الباب. فرفع رأسه دون أن يتخلى عن هومو. عرف صاحب هذه الشخصية المروعة فارتعد من رأسه إلى قدميه. وهمس في أذن جوينبلان: "الضابط الأسود"!

تذكر جوينبلان ما سمعه عن هذا الضابط من ارسوس... وكادت تبدر من شفتيه صرخة تدل على الدهشة.. لكنه تمالك نفسه. ووقف صاحب الخان

خلف هذا الرجل وهو يكاد يذوب خوفًا.

مد الضابط الأسود ذراعه فوق ضيا دون أن ينبس بكلمة. ولمس كتف جوينبلان بالقضيب الحديدي. وأشار بإبهام يده اليسرى في نفس الوقت إلى ناحية الباب.

أوحت هذه الإشارات الصامتة البليغة الآمرة إلى جوينبلان أن يتبع الضابط..

لم يكن أمام الإنسان متى لمسه القضيب الحديدي إلا الطاعة والخضوع.. فإن القانون الإنجليزي كان يهدد العاصين بالعقوبات الصارمة القاسية.. وجلس جوينبلان في مكانه مذهولًا حائرًا.

ولو أنه تلقى على رأسه لطمة قوية من هذا القضيب الحديدي بدل أن يمس كتفه، ما زاغ وذهل أكثر من هذا القدر.. فقد أدرك أن (الضابط الأسود) يأمره بأن يتبعه.. لكن إلى أين؟. هذا ما كان يجهله.

وكان ارسوس بدوره فريسة للعذاب والألم الشديد... وذهب به الفكر في هذه اللحظة إلى الكيد الذي كان يكيده له منافسوه من أرباب المهنة، بالاتحاد مع رجال الدين.. بل إنه ما كاد يتذكر تلك الملاحظات التي صدرت من جوينبلان في حق الملكة حتى ارتعد وتملكه الفزع.

أما ضيا فكانت تبتسم.. فإنها لم تشعر بشيء.. وحرص جوينبلان وارسوس على السكوت حتى لا تنزعج.

نهض جوينبلان. أدرك أن العصيان لا يجدي. وبقى واقفًا أمام الضابط.

رفع الضابط القضيب الحديدي عن كتف جوينبلان. وأمسكه بيده لحظة في وضع عمودي.

كانت هذه الحركة مفهومة للشعب في ذلك العهد، ومعناها ما يلي بالحرف الواحد: "ليتبعني هذا الرجل وحده.. وليبق الجميع حيث هم. وليلزموا الصمت".

ودار (الضابط الأسود) على عقبيه كأنه آلة تتحرك حول محورها وتقدم إلى باب المركبة في خطوات رزينة متعاظمة. تطلع جوينبلان إلى ارسوس. فوضع هذا يده في خاصرتيه. وقطب وجهه. وهز كتفيه. وكانت لهذه الحركات معنة واحد هو وجوب الخضوع والامتثال.

نظر جوينبلان إلى ضيا. كانت لم تزل غارقة في أحلامها الذهبية والابتسامة تشرق فوق ثغرها. فوضع جوينبلان أطراف أصابعه على فمه. وأرسل قبلة بليغة صامتة.

وانتهز ارسوس فرصة إدارة الضابط ظهره. فتغلب على ارتياعه. وهمس في أذن جوينبلان:

– استحلفك بحياتك ألا تتكلم حتى يستجوبوك!

تناول جوينبلان عباءته وقبعته في سكون حتى لا يزعج ضيا. فالتقت بالعباءة ودس رأسه في القبعة. وكانت ملابس التمثيل لا تزال فوق جسده. وألقى نظرة ثانية على ضيا.

ولما وصل (الضابط الأسود) إلى الباب أخذ يهبط درجات السلم شاهرًا القضيب الحديدي: وسار جوينبلان في أثره كأنما تقيده إليه قوة غير منظورة. وراقبه ارسوس وهو يغادر (المسرح الأخضر) وفي هذه اللحظة زمجر الذئب قليلًا. فأسكته ارسوس وهمس في أذنه: "سيعود"..

كان (الضابط الأسود) يسبق جوينبلان ببضع خطوات لكنه لم يلتفت

خلفه مرة واحدة، شأن الواثق من أنه يمثل القانون في بروده وصرامته. واجتاز الاثنان فناء الخان في سكون كسكون الموت.. ولما وصل إلى الشارع كانت تنتظر فرقة من الشرطة. وتجمع بعض أفراد الجمهور قرب باب الخان.

وانتظم رجال الشرطة في صفين حول جوينبلان. فسار بينهم شاحب اللون كأنه تمثال.. بينما تقدم (الضابط الأسود) على رأس هذا الموكب المروع إلى حيث يجهل جوينبلان.

قبو العذاب

تبع ارسوس الموكب مع بعض أفراد الجمهور على مسافة بعيدة، رغم أن القانون ينص على وجوب التفرق والابتعاد في هذه المناسبات. على أن اعتقال جوينبلان تم في هدوء شامل، حتى أن هذه الحادثة لم تلفت أنظار الجمهور الذي لا يكثر في مثل هذا الوقت المبكر. كما أن عباءة جوينبلان وقبعته حجبتا ملامحه عن العيان فلم يفطن إليه أحد.

ولم يفارق ارسوس الخان قبل أن يوصي كلا من نيكلس وغلامه جوفكوم والنوريتين فيبي وفينوس ألا يذكروا شيئًا مما وقع أمام ضيا، مهما كانت الظروف.. وطلب إليهم أن يفهموها أن ضرورات العمل استدعت غياب ارسوس وجوينبلان، وأنهما سيعودان بعد قليل.. وقرر لهم أن هذا الحادث وليد بعض الخطأ من جانب السلطات المسئولة.. وأنه لن تمضي ساعات حتى يسوي على خير الوجوه. ولما اطمأن إلى هذه الاحتياطات غادر الخان وسار في أثر موكب البوليس.

والواقع أن ارسوس كان يعتقد أن جوينبلان لم يقبض عليه، إن كانت هناك جريمة حقا، إلا لاتهامه بمخالفة يسيرة لبعض نصوص القانون وما دام الأمر كذلك فلن تتجاوز التسوية غرامة بضعة شلنات يدفعها جوينبلان ويخلى سبيله.

ومهما يكن فإن تفسير الموضوع كله لا يلبث أن ينجلي لعينيه من الاتجاه الذي يسير فيه الموكب بعد مفارقة ميدان تارنزو. فإذا سار الموكب إلى اليسار كان معناه ذهاب جوينبلان إلى محكمة المخالفات في (سوثوراك)، وانتهاء

المسألة على الوجه الذي تصوره ارسوس.

أما إذا أتجه إلى اليمين فإن للموضوع يكون له عواقب خطيرة ونتائج مروعة حيث توجد جهات مخيفة مرهوبة في هذا الاتجاه.

وصل الموكب إلى نهاية الميدان يتقدمه (الضابط الأسود). ووقف ارسوس يراقبه وقد احتبست أنفاسه في صدره... وراح يسأل نفسه أي الاتجاهين يسلك هذا الموكب.

اتجه الموكب إلى اليمين!

ولم يتمالك ارسوس أن ترنح واستند إلى الجدار حتى لا يسقط على الأرض رعبًا. أخذ الموكب يتقدم في سلسلة من المنعطفات والشوارع المهجورة حتى وقف أخيرًا في حارة ضيقة ليس بها من المساكن سوى بضعة أكواخ.

كان يمتد على جانبي الحارة الضيقة جداران. أحدهما منخفض إلى اليسار.. والثاني مرتفع إلى اليمين.. به نوافذ ضيقة مستطيلة وفي أسفله باب صغير ثقيل تعلوه نافذة ضيقة مشبكة بالقضبان الحديدية ويتدلى منه قفل كبير.

كانت الحارة مقفرة مهجورة إلا من ذلك الموكب البوليسي الذي يتوسطه جوينبلان.. وإلا من ارسوس الذي اختفى في إحدى زوايا الحارة وأخذ يطل برأسه بين وقت وآخر محاذرًا متلصصًا. وقف (الضابط الأسود) أمام الباب المنخفض وطرقه، فانفتحت النافذة الضيقة.. وقال على الأثر: "بأمر جلالة الملك".

فتح الباب الثقيل في صوت مروع، وانكشف عن ظلام كأنه مدخل كهف خفي. ورأى ارسوس جوينبلان يختفي في الداخل.

دخل الموكب وأغلق الباب بحركة آلية دون أن يكون أحد بجانبه.كان

الباب الخلفي لسجن (سوثوارك).

كان لسجن (سوثوارك) بابان..أحدهما في شارع الضاحية وهو طريق الموظفين المسئولين ورجال القانون...والثاني هو الباب الصغير الكائن في الحارة الضيقة، المسمى (باب العقاب)، وهو معد لدخول المسجونين وخروج الأموات، حيث كانت تنقل منه جثث الموتى إلى مقبرة السجن المجاورة، وهي تقع خلف الجدار المنخفض في نفس الحارة.

ما كاد جوينبلان يسمع صوت إغلاق الباب خلفه حتى سرت في جسده رعدة.. وخيل إليه أن هذا الباب هو الحد الفاصل بين الظلمة والنور، وبين الموت والحياة.. وراح يسأل نفسه إلى أين يقودونه وماذا يقصدون به، وما معنى كل هذا؟

لم ير شيئا حوله.. ألفى نفسه في ظلام حالك.. لم يجد نافذة ولا مصباحًا.. فقد كان من تقاليد العصور القديمة عدم إضاءة مداخل السجون حتى لا يعرف الضيف الجديد موقعه. بسط جوينبلان ذراعيه.. فلمس جدارين متقابلين.. فأدرك أنه في ممشى.. وأخيرًا ألفت عيناه الظلام.. واستطاع أن يميز بعض الأشباح حوله، وأن يحدد شكل الممشى.

لم يقف جوينبلان مثل هذا الموقف في حياته. وأحس بأنه قد وضع تحت سيطرة يد قاهرة قوية.. وشعر برغبة قوية في تخفيف هذا الجو الخانق الذي يحوطه، وتفسير هذا الموقف المجهول.

تذكر أن ارسوس أوصاه بالصمت.. غير أنه لم يستطع أن يقاوم الرغبة الملحة التي كانت تدفعه إلى الكلام.. فقال:

– سادتي.. إلى أين تذهبون بي؟

لم يجبه أحد.

وأحس جوينبلان بأطرافه تجمد إزاء هذا الصمت المروع. ألفى نفسه تحت سطوة القانون وسلطانه الرهيب. وتسلل الخوف إلى قلبه.. وشعر بأنه يكاد يغمى عليه.

تقدم الموكب.. لم تكن توجد سجلات في سجون ذلك العهد لتدوين البيانات اللازمة عن الضيوف الجدد.. وكان يكفي أن يطبق السجن على السجين. ساروا صفًا واحدًا يتقدمهم (الضابط الأسود) وجوينبلان في ممشى كان يضيق شيئًا فشيئًا حتى أحس جوينبلان بكتفيه تلمسان الجدران. وبين وقت وآخر كانوا يمرون بفتحات غائرة في الجدران عن اليمين وعن الشمال تعلوها قضبان مشبكة، وتمتد خلفها سلالم متصاعدة أو نازلة. مروا بباب مغلق فتح أمامهم ثم أغلق من تلقاء نفسه. واجتازوا بعده بابًا ثانيًا مثله، ثم بابًا ثالثًا..

أخذ السقف ينخفض تدريجيًا حتى تعذر الانتصاب. ظهرت بوادر الرطوبة. وأخذت قطرات الماء تتساقط من السقف.. واحتبس الهواء ومما زاد الطين بلة أن الممشى كان منحدرًا..

وقفوا فجأة.. كان الظلام كثيفًا.. واتسع الممشى قليلًا.

سمع جوينبلان صوتًا داويًا.. فقد طرق (الضابط الأسود) بابًا حديدًا بالقضيب الذي يحمله.. وفتح الباب الحديدي لكنه لم يفتح كما تفتح الأبواب الأخرى.. بل رفع في تجويف الجدار إلى أعلى.

ثم ظهرت للعيان فتحة يتخللها ضوء..

كان الضوء ضئيلًا.. لكنه غمر عيني جوينبلان اللتين بقيتا في الظلام وقتًا طويلًا..

ألف جوينبلان الضوء أخيرًا.. وألقى نظرة في الفتحة التي أمامه.. فرأى مشهدًا مروعًا..

رأى عند قدميه سلمًا حجريًا مؤلفًا من نحو عشرين درجة.. يؤدي إلى قبو عميق مستدير وكان السلم ينحدر في ميل يكاد يكون عموديًا.. درجاته ضيقة متآكلة.. ولا حواجز له عن اليمين أو عن الشمال...

أما القبو فهو رحب يشبه قاع بئر عميق.. رطب بارد مترب..

ورأى في وسط القبو أربعة أعمدة قصيرة يقوم عليها سقف معقوف تحصر بينها شبه غرفة صغيرة في وسط القبو. وكان يتدلى منها مصباح نحاسي مستدير مشبك بالقضبان، ينبعث منه الضوء الذي بهر نظر جوينبلان أول الأمر.. ولم يكن في القبو ضوء آخر.. ولا نافذة ولا فتحة.. ولم يكن هذا كل شيء.. فقد رأى جوينبلان جسمًا أصفر اللون ومخيف الشكل ممددًا على الأرض بين الأعمدة الأربعة، تحت المصباح..

كان الجسم ملقى على ظهره.. له رأس مغمض العينين.. وصدر مختلط المعالم.. أما أطرافه الأربعة فقد شدت بسلاسل حديدية إلى قواعد الأعمدة الأربعة.. كان الجسد عاريًا.. وهو جسد إنسان..

أشرف جوينبلان عن مكانه على هذا المشهد مروعًا مشدوهًا.. وفجأة سمع حشرجة صادرة من صاحب الجسد.. فأدرك أنه على قيد الحياة. ثم رأى جوينبلان قرب الجسد رجلًا كهلًا في رداء أحمر جالسًا على مقعد كبير مرفوع على حجر مسطح ضخم، قد وقف عن جانبيه رجلان في ملابس سوداء..

كان الرجل الكهل هو قاضي مقاطعة (ساري). وقد جلس في مكانه جامدًا كالتمثال.. ممسكًا بيده باقة من الورد هي إحدى التقاليد التي تصاحب

مهمة القاضي في ذلك العهد..

وإلى جانب القاضي قامت طاولة تحمل طائفة من الأوراق والكتب بينها عصا القاضي.. أما الرجلان ذوا الملابس السوداء فكان أحدهما طبيبًا والثاني أستاذًا في القانون.. وكلاهما يكمل هيئة المحكمة..

جلس خلف مقعد القاضي كاتب يحمل فوق ركبتيه طائفة من الأوراق، ورقعة من الجلد.. أمسك قلمه بيده على أهبة الكتابة. وأستند إلى أحد الأعمدة رجل مشبك الذراعين يرتدي ملابس من الجلد هو مساعد الجلاد..

اجتمع هذا المجلس الرهيب حول الرجل المقيد.. دون أن ينبس أحدهم بكلمة واحدة.. وكان يسودهم جميعا هدوء مروع..

كان هذا المكان (غرفة التعذيب) المعروفة في انجلترا في ذلك العهد.

أحس جوينبلان بيد تلمس كتفه برفق. كانت يد (الضابط) الأسود.. فأدرك جوينبلان أنه يطلب إليه النزول.. فأطاع. أخذ جوينبلان يهبط درجات السلم الرأسي في حذر وبطء، والضابط الأسود في أثره، وكلما نزل درجة خيل إليه أن الأمل يتلاشى من صدره، حتى وصل أخيرًا إلى القبو شاحب اللون خافق القلب. كان صوت الحشرجة يصدر بين حين وآخر من حلق الرجل المقيد بالسلاسل المشدودة إلى الأعمدة.

ناداه صوت في الظلام، وهو صوت القاضي، قائلا: تقدم!. تقدم جوينبلان، وهمس الضابط في أذنه في رزانة:

– أنت في حضرة قاضي مقاطعة (ساري)..

دنا جوينبلان من الرجل المعذب. فانتابه رعب لا يوصف.

رأى أمامه رجلا في الخمسين أو الستين من عمره، أصلع الرأس تلمع

شعرات بيضاء فوق ذقنه. وكان مغمض العينين فاغر الفم تبدو أسنانه جميعا للعيان.

كانت عظامه تبدو من خلال جسمه. وشدت ذراعاه وساقاه إلى الأعمدة الأربعة كالمصلوب. ووضعت فوق صدره وبطنه رقعة مسطحة من الحديد عليها أربعة أو خمسة أحجار ضخمة. وكانت حشرجته تتأرجح بين الزفير والزئير.

تناول القاضي عصاه البيضاء بيده الثانية. ووقف قائلا:

– الولاء والطاعة لصاحبة الجلالة.

ثم أعاد العصا فوق الطاولة، وأخيرًا رفع صوته وقال في جمود:

– أيها الرجل الممدد في السلاسل.. أصغ لآخر مرة لصوت العدالة.. لقد جيء بك من سجنك إلى هذا المكان كما تقضي بذلك نصوص القانون.. إنك التزمت العناد ورفضت الاعتراف أمام القاضي، رغم النصائح التي أسديت إليك، وستعاد الآن على سمعك من جديد.

ولم يكد القاضي يتم هذه الكلمات حتى راح أستاذ القانون الواقف عن اليمين، يردد كلاما باللاتينية، هو النصوص القانونية التي تعزز أقوال القاضي.. والتزم هذه الخطة حتى نهاية الجلسة.

استأنف القاضي كلامه إلى الرجل المشدود بالسلاسل:

– إن من يرفض الكلام أمام القاضي يعرض نفسه لأشنع التهم، إن من لا يعترف بشيء يعترف بكل شيء. إن السكون أمام القاضي هو لون من التمرد.. وخيانة القضاء هي الخيانة العظمى.. وقد احتاط القانون لذلك.. فاعد لهذه الجريمة العذاب والسلاسل.

يا رجل!. لقد سلكت مسلك العداء نحو العدالة بعنادك وسكوتك،

ولذلك جئ بك إلى هنا تنفيذًا لنصوص القانون. فجردت من ملابسك.. وقيدت بالسلاسل التي شيدت إلى الأعمدة.. ووضعت فوق بطنك وصدرك رقعة من الحديد عليها حجارة ثقيلة.

وفي اليوم الأول، منع عنك الطعام والشراب، وفي اليوم الثاني جيء لك بالطعام، بغير شراب.. ولم يتجاوز ثلاث لقمات من خبز الشعير.. وفي اليوم الثالث جيء لك بالشراب، بغير طعام، فصبوا في فمك ثلاث مرات ماء من مجاري السجن. ونحن الآن في اليوم الرابع.. فإذا لم تتكلم فستبقى هنا حتى تموت.. وتلك إرادة العدالة.

وسكت القاضي قليلًا.. ثم استطرد:

– أصغ إلي يا رجل.. فإن الأمر يتعلق بك وحدك، والشأن شأنك.. إذا تركت عنادك، واعترفت، فسيكتفي بشنقك فقط.. وسيكون لك الحق في مبلغ من النقود تتمتع به في شراء ما تشتهيه نفسك.. ثم تقاد إلى المشنقة.. هذه هي مزايا الاعتراف. فهل تقبل الكلام وتسهل مهمة العدالة؟

انتظر القاضي.. وسمعت زفرات السجين وهو يئن تحت العبء الهائل الذي يخنق أنفاسه، لكنه بقي جامدًا في مكانه.

استطرد القاضي:

– يا رجل! السكوت غير مأمون العاقبة.. والعناد صفة مرذولة. إن في سكوتك خيانة للتاج. فلا تتماد في هذا العصيان المذموم. فكر في جلالة الملكة. ولا تقاوم رغائبها السامية.. تكلم وكن من الرعايا المخلصين.

فصدرت حشرجة من حلق السجين.. واستأنف القاضي:

– نحن الآن في اليوم الرابع.. وهذا هو اليوم الفاصل، وقد اختير هذا اليوم

للمواجهة. لاعتقاد المشرعين من أسلافنا أن المذنب إما أن يتكلم فيه، أو يصمت إلى الأبد..

ثم انحنى القاضي نحو السجين، وهتف:

– أيها الرجل الراقد على الأرض.. هل تسمعني؟.

لم يتحرك الرجل.. فقال القاضي: افتح عينيك باسم القانون!.

بقيت عينا السجين مغمضتين.. فالتفت القاضي إلى الطبيب الوقف إلى يساره، وقال له:

– أيها الطبيب.. افحصه وصور حالته.

تقدم الطبيب من السجين في تعاظم، وانحنى فوقه، وأدنى أذنه من فمه، وتحسس نبضه، ثم نهض وقال:

– يمكنه أن يسمع.

فقال القاضي: هل يمكنه أن يرى؟ فأجاب الطبيب: نعم.. يمكنه.

– رفع القاضي باقة الورد في يده وخاطب السجين في صوت مرتفع رهيب:

– تكلم أيها التعس.. أن القانون يبتهل إليك قبل أن يسحقك.. تذكر يا من تتصنع البكم، أن القبر أشد منك بكما.. تذكر يا من تتظاهر بالصمم، أن الفناء أشد منك استشعر الندم. فستترك وحدك في هذا القبو.

أصغ إلي يا أخي.. لأني رجل مثلك!. أصغ إلي يا بني. لأني شيخ كبير!. انظر إلي.. لأني معذبك.. وسيكون عذابي هائلًا مخيفًا! ثق أني أرتعد أمام نفسي.. فإن سلطتي تخيفني. لا تدفعني إلى حدود الصرامة.. وكن مطيعا

للعدالة. للهلاك هنا. فستمضي الساعات والأيام والأسابيع وأنت في نزع أليم فريسة للجوع والظمأ. تحت ثقل هذه الأحجار الضخمة. وحيدًا في هذا القبو المظلم. منبوذًا. منسيًا طعاما للجرذان والحشرات.

إني استحلفك أن تجيب. أشفق على نفسك واستسلم للعدالة افتح عينيك. وانظر إذا كنت تعرف هذا الرجل؟ لم تختلج عينا السجين.. ولم يحول رأسه.

نظر القاضي إلى الطبيب، ثم إلى (الضابط الأسود).

نزع الضابط الأسود قبعة جوينبلان وعباءته.. وضع يديه فوق كتفيه.. ثم تقدم به في دائرة النور قرب السجين الممدد فظهر وجه جوينبلان في نطاق الضوء واضحًا جليًا. وفي نفس الوقت تناول الطبيب رأس السجين بين يديه، وحول وجهه إلى ناحية جوينبلان، وفتح عينيه المغمضتين بأصابعه.

رأى السجين جوينبلان. وما لبث أن رفع رأسه باختياره. وفتح عينيه على سعتهما. وجعل ينظر إليه.

وأخيرًا سرت في جسده رعدة، وهتف:

– هو!.. نعم. هو! ثم صدرت منه ضحكة عالية مروعة.

وردد كلماته:– هو! هو ثم هوى رأسه إلى الأرض ثانية وأطبق عينيه.

قال القاضي: سجل أيها الكاتب.

كان جوينبلان قد احتفظ حتى هذه اللحظة بهدوء ظاهري. وإن كان مضطربًا متحيرًا في الباطن. على أن كلمات السجين وأمر القاضي إلى الكاتب زلزلت أعصابه، فاستولى عليه رعب شديد. وأحس كأنما قيد بالسلاسل إلى جانب السجين. وراح بفوه بكلمات متقطعة مضطربة كانت تبدر منه وهو لا

يكاد يعي لنفسه.

– ليس هذا صحيحًا!. لست أنا. لا أعرف هذا الرجل! وهو لا يعرفني ما دمت لا أعرفه. إن عندي دورا أريد أن أمثله هذه الليلة. ماذا تريدون مني؟. إني أطلب حريتي. لماذا جئتم بي إلى هذا القبو؟ ألم تعد هناك قوانين؟. قولوا أنه لا توجد قوانين. سيدي القاضي. أكرر قولي أني لست من تتوهمون. أني بريء من كل ما قيل عني، أريد أن أذهب، ليس هذا من العدالة.. ليس بيني وبين هذا الرجل شيء. يمكنكم أن تتحققوا من ذلك. فأن حياتي ليست سرًا. أنهم أخذوني كما يؤخذ اللصوص.. أنا مهرج متنقل، ألعب وأشعوذ في الحفلات والأسواق. أنا (الرجل الضاحك). وقد شاهدني كثير من الناس. ونحن نقيم في ملعب (تارنزو) إني أمضيت الخمسة عشر عامًا الأخيرة من عمري أكسب قوتي بعرق جبيني. وأنا الآن في الخامسة والعشرين. إني أقيم في خان (تاد كاستر) وادعى جوينبلان. دعني أخرج يا سيدي. يجدر بك ألا تستغل بؤس البؤساء والمساكين!. اشفق علي رجل لم يرتكب ذنبًا، وليس له حام أو نصير!. أن أمامك مهرجًا شقيًا منكودًا.

فقال القاضي:

– إن أمامي اللورد فيرمان كلانشارلي بارون كلانشارلي وهنكر فيل. ماركيز كورليون. وعضو مجلس اللوردات..

ثم نهض القاضي من مكانه. ودعا جوينبلان إلى الجلوس في مقعده قائلا:

–سيدي اللورد. هل تتفضلون بالجلوس؟

أصبع القدر

لم يفهم جوينبلان شيئًا. ونظر خلفه ليرى إلى من يوجه الكلام. تقدم به الضابط الأسود والطبيب وأمسكاه من ذراعيه. وأحس وقد بلغ منه الذهول منتهاه بأنه يوضع في المقعد الذي أخلاه القاضي فترك نفسه يجلس دون أن يطلب بيانًا أو تفسيرًا.

ثم تراجع الضابط والطبيب بضع خطوات، ووقفا جامدين خلف المقعد..

وأخيرًا ترك القاضي باقة الورد فوق الطاولة. ووضع على عينيه عوينات قدمها له كاتب الجلسة. ثم تناول من بين الأوراق المتراكمة فوق الطاولة رقعة من الجلد يجمع لونها بين الصفرة والخضرة. وكانت ممزقة يبدو من شكلها أنها مطوية طيات متعددة.

وقف القاضي تحت ضوء المصباح. وراح يتلو كتابة كثيرة فوق الرقعة الجلدية في صوت رزين. وهذا نصها:

"باسم الأب والابن والروح القدس.

في هذا اليوم، التاسع والعشرين من شهر يناير عام ١٩٦٠، ترك عمدا طفل في العاشرة من عمره وحيدًا على ساحل بورتلاند المقفر، بقصد إهلاكه جوعًا وبردًا.

هذا الطفل قد بيع في العام الثاني من عمره بأمر صاحب الجلالة الملك جيمس الثاني.

هذا الطفل هو اللورد فيرمان كلانشارلي الابن الشرعي الوحيد للورد

دلانيوس كلانشارلي، بارون كلانشارلي وهنكرفيل ماركيز كورليون وعضو مجلس اللوردات الإنجليزي. من زوجته آن برادشو. وقد توفي كلاهما.

هذا الطفل هو وريث أملاك أبيه وألقابه. ومن أجل هذا السبب بيع! ومسخ، وشوه وجهه، وأزيل من الطريق بأمر صاحب الجلالة الملكية. وربي تربية خاصة حتى ينشأ مهرجا في الموالد والأسواق.وقد بيع الطفل في السنة الثانية من عمره بعد موت أبيه النبيل بمبلغ عشرة جنيهات أعطيت للملك ثمنا له. واشتريته أنا الموقع أدناه وكاتب هذه السطور. وتولى مسخه وتشويهه رجل من إقليم (فلاندرز) يدعى هاركانون، وهو وحده خبير بأسرار هذه المهنة.

واتفقا جميعا على أن ينشأ الطفل وله وجه ضاحك.ولهذا الغرض أجرى هاركانون في وجهه عملية تركت في وجهه ضحكة خالدة لا تزول.

وقد خدر هاركانون الطفل وأفقده حواسه أثناء العملية بطريقة خاصة يعرفها وحده. ولم يعرف الطفل ما جرى له.وهو لا يعرف أنه هو اللورد كلانشارلي. ويدعى جوينبلان.

وهاركانون هو الوحيد الذي يعرف إجراء هذه العملية. والطفل المذكور هو الوحيد الذي عاش بعد إجرائها.وهذه العملية من الغرابة بحيث إذا استوي الطفل رجلا ثم صار كهلا، فإن هاركانون يعرفه فورًا.

وفي الوقت الذي أدون فيه الأسطر، يقضي هاركانون وقته في السجون.. فقد قبض عليه الملك وليم الثالث بتهمة الاتجار في الأطفال وهو الآن في أحد أقبية سجن شاتام.

وقد بيع الطفل وسلم لنا بأمر الملك، بواسطة خادم اللورد لاينوس المتوفى، في نفس البيت الذي يقيم فيه اللورد على ضفاف بحيرة جنيفا في سويسرا، مع

زوجته المتوفاة. وقد مات ذلك الخادم بعد وقت قصير من وفاة سيده. ولذلك فإن هذا السر الخطير مجهول من كل إنسان. إلا من هاركانون الموجود في سجن شاتام، ومنا نحن الذين على وشك الهلاك.

ونشهد نحن الموقعين أدناه. بأننا ربينا ذلك الطفل وتعهدناه بيننا ثمانية أعوام لأغراض تجارية.

واليوم، ونحن نهرب من إنجلترا اجتنابًا لمثل مصير هاركانون قد دفعنا الخوف من العقاب لهجر الطفل على ساحل بورتلاند في ظلام الليل، وهو الطفل المسمى جوينبلان. أو اللورد فريمان كلانشارلي.

والآن لقد أقسمنا للملك أن نخفي هذا السر، لكننا لم نقسم أمام الله.

والآن ونحن في البحر. تحت رحمة عاصفة شديدة سلطتها علينا الأقدار. وقد بلغ اليأس والحزن من نفوسنا كل مبلغ راكعين على أقدامنا أمام الله الذي بيده إنقاذ حياتنا، وقد تشاء رحمته أن ينقذ كذلك أرواحنا.. وليس لنا أن نطمع في شيء من رحمة البشر.. بل كل شيء يوجب علينا الخوف من الله.. لا ملاذ لنا سوى التندم على ما ارتكبنا من الذنوب مستسلمين للموت.. خاضعين.. مستغفرين.. الآن ونحن كذلك نسجل هذا الاعتراف، ونلقى به للمحيط الثائر يحمله وفاقا لمشيئة الله عسى أن يغفر لنا ويتداركنا برحمته.. آمين..

"وهذه توقيعاتنا."

وراح القاضي يتلو أسماء أفراد العصابة الهالكة. ثم استطرد:

– والآن ها هي ذي حاشية مكتوبة بنفس الخط:

" لم يبق من رجال السفينة بعد أن اكتسحت الأمواج القبطان، سوى اثنين. وقد وقعنا باسمينا.. جالديزن وآف ماريا."

واستطرد القاضي: في ذيل الرقعة توجد العبارات التالية: "كتب هذا الاعتراف في البحر، فوق ظهر السفينة (ماتوتينا)".

ثم أضاف القاضي: هذه الرقعة هي وثيقة رسمية تحمل شعار الملك جيمس الثاني.. وقد كتب في هامشها بنفس الخط ما يلي:

"حررنا هذا الاعتراف على ظهر الأمر الملكي، الذي أعطى لنا وقت شراء الطفل. أدر الرقعة فيظهر الأمر".

أدار القاضي الرقعة الجلدية وعرضها للضوء. فظهرت في وسطها كلمتان باللاتينية مذيلتان بتوقيع.. وتلاهما قائلا: "بأمر الملك.. جيفري".

وتكلم جوينبلان آخر الأمر، فقال بغير وعي:

– تذكرت هذه الأسماء.. نعم.. جرنادوس الأستاذ.. هو كهل كئيب المظهر.. كنت أخاف منه وكانت بينهم امرأتان، وقد اعتاد كابجاروب أن يشرب من زجاجة نقش عليها اسم بالمداد الأحمر.

فقال القاضي: ها هي ذي الزجاجة.

وضع القاضي فوق الطاولة زجاجة أخرجها الكاتب من حقيبة بين قدميه.. هي الزجاجة التي تضمنت الرقعة الجلدية وقت إلقائها في البحر.. واستطرد القاضي:

–في هذه الزجاجة وضع الرجال الغارقون الاعتراف الذي تلوته الآن.. وقد تولى البحر إيصال هذه الرسالة إلى العدالة لكل أمانة وإخلاص.. وقد نقش فوقها اسم بالمداد الأحمر كما قررت.

ثم رفع القاضي صوته وخاطب السجين قائلا:

– إن اسمك أيها الشقي مكتوب هنا.

وتناول القاضي الزجاجة وعرض أحد جوانبها للضوء.. فظهر اسم "هاركانون" منقوشا عليها بحروف حمراء سودتها يد الزمن والمياه..

واتجه القاضي بعد ذلك إلى السجين وقال في صوت جاف ونبرات جامدة:

– يا هاركانون! حينما قدمت إليك أنا القاضي هذه الزجاجة المنقوش عليها اسمك، عرفتها على الفور.. ولما تولت أمامك محتويات الرقعة الجلدية التي كانت بداخلها، لزمت الصمت. ورفضت أن تجيب.. آملا بلا ريب أن يستحيل الاهتداء إلى الطفل، وأن تفلت من العقاب. فلما تمت المواجهة، وجئ أمامك بذلك الذي هجر على ساحل البحر في تلك الظروف المعروفة، تلاشى أملك.. وخرجت عن صمتك.. وعرفت ضحيتك.

فتح السجين عينيه.. ورفع رأسه.. وقال في صوت حافل بالألم:

– إني أقسمت أن أخفي السر.. وقد أخفيته ما استطعت.. أما الآن فلم يبق للكتمان فائدة.. هكذا أرادت الأقدار.. ولهذا السبب أتكلم الآن.. نعم. هذا هو.. إننا باشرنا هذه المهمة وحدنا!.. الملك بأمره! وأنا بفني!..

ثم نظر إلى جوينبلان وقال:

– والآن. اضحك إلى الأبد!.

ثم أخذ يضحك ضحكة وحشية هي أقرب إلى النحيب. ولما كف عن الضحك استلقى على ظهره. وأطبق عينيه.

قال القاضي للكاتب:

– سجل هذا الاعتراف.

وتمهل القاضي حتى دون الكاتب اعتراف السجين. وقال:

– "هاركانون. بناء على نصوص القانون. وبعد إتمام المواجهة التي أعقبها التعرف على الشخصية. وإيماء إلى اعترافات شركائك المسطرة في الرقعة الجلدية، والتي عززتها باعترافك. سنتخلص من هذه القيود، وتعلق في المشنقة".

وضع القاضي الرقعة والعوينات فوق الطاولة. ثم أشار بيده إلى الرجل ذي الملابس الجلدية. مساعد الجلاد. تحرك مساعد الجلاد لأول مرة، فذهب إلى السجين، ورفع الأحجار عن صدره واحدًا بعد الآخر. وأزال الرقعة الحديدية فبدا صدر السجين مهشما، ثم فك السلاسل الحديدية التي كانت تشد يديه وساقيه إلى الأعمدة الأربعة.

بقي السجين ممددًا على الأرض مغمض العينين. لا يتحرك قال القاضي:

– هاركانون!. انهض!.

لم يتحرك السجين..

رفع مساعد الجلاد إحدى يدي السجين. وتركها. فهوت إلى الأرض، ولما رفع اليد الثانية هوت مثل أختها.

تقدم الطبيب من السجين وأخرج من جيبه مرآة من الفولاذ ووضعها قرب فمه.. ثم فتح عينيه بأصابعه.. فلم تغمض العينان وبقيتا جامدتين. نهض الطبيب وقال:

– مات.

ثم استطرد بعد قليل:

– ضحك فقتلته الضحكة.

فقال القاضي:

– لا يهم.. الموت والحياة سيان بعد الاعتراف.

ثم أشار القاضي بيده إلى الضابط الأسود وقال له: لتنقل الجثة هذه الليلة.. إلى مقبرة السجن المواجهة.

فأجاب الضابط بإيماءة من رأسه وتناول القاضي باقة الورد بيده اليسرى، والعصا البيضاء باليمنى، ووقف أمام جوينبلان الذي كان جالسا في مقعده، وانحنى أمامه انحناءة عميقة.. ثم اعتدل في وقفته وقال له في لهجة رزينة:

– "بعد التحقيق من صحة البيانات والشهادات والأدلة التي تجمعت لدينا، نقرر نحن قاضي مقاطعة (ساري)، أنك أنت اللورد فيرمان كلانشارلي، بارون كلانشارلي وهنكر فيل، ماركيز كورليون، عضو مجلس اللوردات الإنجليزي.. ولتحفظك العناية الإلهية".

وانحنى القاضي أمام جوينبلان.

وانحنى معه أستاذ القانون، والطبيب، والضابط الأسود، وكاتب الجلسة، ما عدا مساعد الجلاد.

قال جوينبلان:

–آه! أيقظوني!

ونهض ممتقع الوجه.. شاحب اللون كالأموات.

قال صوت لم يسمع حتى هذه اللحظة:

–إني جئت حقا لإيقاظك.

ظهر باركلفدرو من خلف الأعمدة حيث شهد كل ما تم، وقال:

– نعم.. إني جئت لإيقاظك. لقد نمت خمسة وعشرين عاما.. كنت تحلم. وقد حان الوقت لكي تستيقظ. تحسب نفسك جوينبلان. وأنت تشارلي.. تظن نفسك من الشعب، وأنت من النبلاء: أتحسب أنك مهرج، وأنت من اللوردات. تحسب أنك فقير معدم، وأنت غني موسر. استيقظ يا سيدي اللورد!.

غمغم جوينبلان في نبرات يتمشى فيها الخوف والوجل:

– ما معنى كل هذا؟

فقال باركلفدرو:

– سيدي اللورد. إني أدعى باركلفدرو. وأنا ضابط في الأميرالية وقد وجدت هذه الزجاجة التائهة، زجاجة هاركانون، على الشاطئ وجيء بها إلى لفتحها بمقتضى واجبات وظيفتي. وقد فتحتها بحضور اثنين من أعضاء البرلمان، واستخرجنا محتوياتها، وتلونا مضمونها، وحررنا محضرًا رسميًا بذلك وقعنها بأسمائنا. ثم تشرفت بمقابلة جلالة الملكة حيث عرضت على مسامعها ما حدث واتخذت بأمر جلالتها جميع الإجراءات الرسمية والقانونية اللازمة في هذا الشأن، مع مراعاة التكتم الواجب في مثل هذه الظروف الدقيقة وكان آخر هذه الإجراءات هو المواجهة التي تمت أمامك.

سيدي.. أنت الآن تملك دخلًا مقداره أربعون ألف جنية سنويا. أنت عضو في مجلس اللوردات. أنت مشرع وقاض سام. أنت في مصاف الأمراء وستتزوج قريبًا دوقة، وابنة ملك.

ما كاد جوينبلان يسمع هذه البيانات حتى تراخت أعصابه وهوى مغمي عليه.

حلم شيطاني يتحقق

حدث كل هذا بسبب زجاجة عثر عليها أحد جنود السواحل وأخذت طريقها الرسمي حتى وصلت إلى الأميرالية، أي إلى يد باركلفدرو..

وما كاد باركلفدرو يفض الزجاجة ويستخرج محتوياتها حتى حملها إلى الملكة، فاهتمت الملكة بالأمر.. وأمرت باتخاذ الإجراءات الرسمية.

كان هاركانون لا يزال في سجن شاتام. فصدر الأمر بنقله إلى لندن. وفي أثناء ذلك أجريت تحريات خاصة في سويسرا فتبينت صحة الوقائع.. وجيء من (إدارة المحفوظات) في (لوزان) بشهادة رسمية تثبت زواج اللورد "لاينوس كلانشارلي" في المنفى، وشهادة بمولد ابنه وشهادة بوفاة الأب والأم.

ثبت لدى رئيس مجلس اللوردات أن وريثًا لأحد النبلاء خلف في طفولته وشوه وجهه، ثم عثر عليه من جديد. فأشار الرئيس على الملكة بإعادة الألقاب والممتلكات إلى اللورد "فيرمان كلانشارلي" المعروف خطأ باسم "جوينبلان" على أن تتم المواجهة بينه وبين المجرم هاركانون. وأن يتعرف هذا الأخير عليه.

أما الملكة أنا، فإنها حين علمت بتشويه جوينبلان. ولرغبتها في عدم غمط حقوق أختها الدوقة جوشيانا التي منحت لها ممتلكات كلانشارلي. فقد قررت أن تتزوج الدوقة من اللورد الجديد، أي من جوينبلان. وتولى باركلفدرو تمهيد كل شيء.

فبفضله بقى الموضوع طي الكتمان حتى لم يعلم به كل من الدوقة جوشيانا واللورد دافيد. ولم يفطنا إلى الهاوية السحيقة التي حفرت تحت أقدامها. فقد كان من اليسير خداع الدوقة الغارقة في كبريائها واعتزازها بكرامتها. أما اللورد

دافيد فقد صدر الأمر بسفره إلى سواحل هولندا حتى لا يفطن إلى ما يراد به من سلب اللقب الذي يحمله.

على أنه حدث شيء جدير بالتنويه.. فقد أقام أحد الضباط البحريين في الأسطول الإنجليزي بعمل جليل استحق من أجله الترقية وأوصى رئيس المجلس البحري بترقيته إلى رتبة (فيس اميرال).. لكن الملكة "أنا" حذفت اسم هذا الضابط وضعت مكانه اسم اللورد دافيد،حتى إذا فقد ألقابه وممتلكاته، كان له أن يقنع بلقب (فيس اميرال) في الأسطول.

وابتهجت الملكة أنا وطربت أشد الطرب.. فقد وجدت زوجًا بشعًا مخيفًا لشقيقتها.. وعوضت اللورد دافيد عن خسارته.. وهكذا جمعت بين الشر والخير.

كانت الملكة "أنا" توشك أن تستمتع بمهزلة طريفة.. وفوق هذا فقد أقنعت نفسها بأنها تكفر عن غلطة ارتكبها والدها الملك جيمس الثاني، بإعادة الحقوق الموروثة إلى أحد النبلاء مهما كانت دمامته وقبحه.. وكانت الملكة تقيم في ذلك الوقت في قصر "وندسور".. وأمكن بذلك كتمان الموضوع عن أسماع الشعب، وبقائه بين أيد معدودة تعالجه في الخفاء.

أما باركلفدرو فلم يكن هناك حد لسروره الوحشي حينما وقعت الزجاجة في يده وألم بسرها الهائل. كان باركلفدرو في ذلك الوقت قد كاد ييأس من بلوغ غرضه الوضيع في الثأر من "جوشيانا" وتحطيم كبريائها للأغراض التي سلف ذكرها.. فلما وقف على هذا السر اضطرم في نفسه فرح شيطاني وطرب جهنمي، وخيل إليه أن الحظ قد أرسل إليه أداة الثأر التي كان يتوق إليها. وكان هذا المخلوق شيطانًا أعماه الضلال عن رؤية الحقيقة.. لم يدر أن العناية الإلهية قد شاءت أن تنتصف للطفل اليتيم المنبوذ، فأهاجت الطبيعة وأغرقت السفينة،

وترفقت بالزجاجة حتى أوصلتها إلى اليابسة.. وردت إلى الطفل حقوقه.. لم يفهم باركلفدرو كل هذا، وصور له الغرور وفساد الطوية أن الظروف لم تهيئ كل هذه العوامل لأجل جوينبلان. بل لأجله هو ولإشباع شهوة الكيد والثأر التي تضطرم في صدره. وهكذا إلا أن يضمها ويسير بها إلى الغاية التي ينشدها.

كان يعرف جوينبلان. فقد رأى الرجل الضاحك، كما شأن الشيطان، توفرت خيوط المكيدة أمامه ولم يبق عليه رآه غيره وقرأ اللوحة المعلقة فوق واجهة (خان تادكاستر) تحمل اسم جوينبلان كما قرأ اللوحة الأخرى التي تتصدر المركبة وتتضمن هذه الكلمات:

"هنا تشاهدون جوينبلان الذي تركه تجار الأطفال وحيدًا في سن العاشرة، في ليلة ٢٩ يناير سنة ١٦٩٠، على ساحل بورتلاند".

وجد القنبلة التي تدمر صرح جوشيانا الشامخ. وجد الطفل. وجد لورد كلانشارلي آخر. وأصبح دافيد ديري موير كالعدم.. طار اللقب والغنى والنفوذ من يد اللورد دافيد واستقرت جميعا عند قدمي جوينبلان ، الذي أصبح يملك القصور والضياع والغابات بل يملك في جملتها جوشيانا. وأية ضربة توجه إلى جوشيانا؟ سيتزوجها مهرج دميم. وهي النبيلة الفاتنة! فما أبدع هذا الحظ الذي ظفر به باركلفدرو. وكان أكثر مما قدر وتصور!

وفوق هذا فإن اللورد دافيد لم يكن يدين له بشيء.. أنا اللورد فيرمان كلانشارلي فسيدين له بكل شيء. سيكون نفوذ باركلفدرو عظيمًا عند هذا النبيل الجديد. ويحقق أحلامه التي كانت تجيش في صدره ويصبح أسقفا.

تمت الإجراءات الرسمية في حدود السرية والكتمان.. وانتهت المواجهة بين هاركنون وجوينبلان وشهدها باركلفدرو على الوجه الذي تقدم.

وفي اليوم نفسه ذهبت مركبة ملكية لاستدعاء الدوقة جوشيانا بأمر الملكة من لندن إلى وندسور حيث كانت الملكة تقيم في تلك الفترة.

وكانت جوشيانا تود أن ترفض الأمر وتؤجل العمل به إلى اليوم التالي على الأقل، لولا أن التقاليد لم تكن تسمح بهذا، ولذلك لم يسعها إلا أن تذهب كارهة. وغادرت لندن إلى وندسور في الوقت الذي ذهب فيه (الضابط الأسود) إلى (خان تادكاستر) للقبض على جوينبلان وإدخاله إلى قبو العذاب في (سوثوارك).

ولما وصلت الدوقة إلى قصر وندسور أنبئت بأن الملكة مجتمعة مع رئيس مجلس اللوردات ولا يمكن أن تستقبلها إلا في اليوم التالي. وأن عليها أن تقيم في قصر كورليون حتى تتلقى أوامر جلالة الملكة في الصباح.

فلم تجد جوشيانا إلا أن تذهب إلى قصرها وهي في أشد حالات السخط والاستياء. ونامت في وقت مبكر على أنها علمت حال وصولها أن اللورد دافيد ديري موير دعي للحضور إلى قصر وندسور في صباح اليوم التالي. بعد أن تلقى في البحر أمرًا من الملكة بالعودة في الحال لتلقي تعليمات جلالتها.

عاد جوينبلان إلى رشده وفتح عينيه فألقى الوقت ليلًا..

وجد نفسه في مقعد ذي ذراعين، في وسط غرفة رحبة يكسو أرضها وجدرانها وسقفها مخمل قرمزي. ورأى بجانبه رجلًا بدينًا مكشوف الرأس، هو الذي ظهر من خلف العمود في قبو (سوثوارك). أو باكلفدرو. وبجانب المقعد الذي جلس فيه طاولتان عليهما شمعدانان يتألف كلاهما من عدة شموع.

وكانت إحدى الطاولتين تملأ أوراقًا وصندوقًا صغير الحجم.. ووضعت فوق الثانية صحفة فضية عليها زجاجة باردة ونبيذ وكونياك.

ورأى جوينبلان في جانب الغرفة المواجهة للنافذة مدفأة ترتفع حتى السقف، وفي جانب آخر سريرًا عاليًا من سرر القرون الوسطى، يصعد إليه بسلم.. وصفت على جوانب الغرفة الأخرى مقاعد منوعة من المخمل الوردي.. وتدلت في نواح مختلفة منها ستائر تحجب أبوابًا موصلة إلى غرف أخرى.

لم يستيقظ جوينبلان تماما ولم يسترد كامل حواسه.. وبهرته هذه الأبهة الرائعة حتى بعثت في نفسه رهبة وخوفًا وقال وهو يشعر بانقباض: أين أنا؟

فأجابه باركلفدرو: أنت في بيتك يا سيدي اللورد..

سكت جوينبلان حتى يتحقق أنه لا يحلم. وأن هذه الكلمات موجهة إليه لا إلى سواه.

كان الخطاب موجهًا إليه حقا، لكنه استحال شخصا آخر.. فقد أبدلت ملابسه. ووجد نفسه مرتديًا صدرية فضية اللون، وسترة موشاة من الحرير وسروالًا من المخمل وحذاء فاخرًا من الجلد الثمين.. وأحس بكيس ثقيل مملوء في جيب الصدرية.

استأنف الرجل البدين حديثه:

– أرجو أن يتنازل سيدي اللورد فيتذكر ما أقول.. إني أدعى باركلفدرو.. وأنا موظف في الأميرالية وأنا الذي فتحت زجاجة هاركانون وأخرجت مصيرك منها..

تفرس جوينبلان في الوجه الضاحك الذي يحدثه صاحبه. بينا استطرد باركلفدرو:

– وأنت تملك يا سيدي اللورد إلى جانب القصر، قصر هنكرفيل، وقلعة

كلانشارلي التي تستمد منها لقلبك. كما تملك تسع عشر إقطاعية بقراها وسكانها وبهذا ترفرف رايتك فوق نحو ثمانين ألف إنسان. ولك في كلانشارلي بلاط خاص، تملك فيه حق إصدار الأحكام ومقاضاة الناس. وبعبارة أخرى لك من السلطات ما للملك فيما عدا حق سك النقود. وتغل لك ممتلكاتك الواسعة دخلًا سنويًا مقداره أربعون ألف جنية.

ثم لمس باركلفدرو الصندوق الموضوع على الطاولة وقال:

– سيدي اللورد. بهذا الصندوق ألفان من الجنيهات أرسلتها إليك جلالة الملكة لقضاء شئونك الضرورية.

تحرك جوينبلان في مقعده وقال:

– سيكون هذا المبلغ لوالدي ارسوس.

فقال باركلفدرو:

– ليكن يا مولاي. سيحمله إليه أحد الضباط في (خان تادكاستر) بل ربما ذهبت أنا إلى لندن. وفي هذه الحالة سأتولى هذه المهمة بنفسي.

فقال جوينبلان:

– سأحمل إليه هذا المبلغ شخصيًا.

تلاشت ابتسامة باركلفدرو وقال:

– هذا محال يا سيدي فأنت الآن بعيد عن لندن بمقدار ثلاثة وعشرين ميلا، في قصر كورليون، مقرك الرسمي، المجاور لقصر وندسور الملكي وقد جئت إلى هنا في مركبة مقفلة كانت تنتظر عند باب سجن (سوثوارك). والخدم الذين أدخلوك إلى هنا يجهلون شخصيتك. لكنهم يعرفونني، وهذا يكفي. وفي القصر

أناس نائمون لم يحن الوقت بعد لإيقاظهم، ولذلك أمامنا بعض الوقت للكلام والتفسير. وإن كان لابد من الإيجاز وقد فوضتني جلالة الملكة..

وراح باركلفدرو وهو يتكلم يقلب بعض الأوراق التي كانت فوق الطاولة.. ثم استطرد:

– هذه هي الوثائق التي تتضمن بيانات وافية بممتلكاتك وألقابك وهنا في دولاب الملابس، رداؤك الرسمي المصنوع من مخمل قرمزي موشى بالفراء.. ومنذ ساعات قلائل أصدرت جلالة الملكة الأوامر اللازمة إلى رئيس مجلس اللوردات بعد أن تمت المواجهة بينك وبين هاركانون.. وقد تمت جميع الإجراءات الرسمية الواجبة.. وستحتل غدا مقعدك في مجلس اللوردات، حيث يتدارس المجلس منذ بضعة أيام مرسومًا مقدمًا من البلاط بطلب رفع مرتب الدوق كمبرلاند زوج الملكة إلى مائة ألف جنية سنويا.. وستتاح لك الفرصة للمساهمة في المناقشة. سكت باركلفدرو قليلًا ريثما تنفس، ثم استطرد:

–ومهما يكن، فلم يتم كل شيء بعد.. لا يمكن أن يبقى الإنسان من النبلاء بغير موافقته. وفي الوسع إلغاء كل شيء إذا لم تقبل.سيدي اللورد.. إن هذا الموضوع جرى حتى الآن في طي الكتمان.. ولن يحط مجلس اللوردات علمًا بالموقف حتى الغد.. وقد التزمت خطة التكتم لدواع تقتضيها مصلحة الدولة. والذين ألموا بالحقائق حتى الآن على أتم استعداد لنسيان كل شيء إذا أوجبت لمصلحة المشار إليها هذا النسيان.. وما بقى حتى الآن في الظلام قد يبقى كذلك إلى الأبد.

من اليسير إلغاء كل شيء.. ولاسيما أن لك أخًا من أبيك وامرأة كانت بعد وفاته معشوقة للملك شارل الثاني، وهوما يفسر سمو مركز هذا الأخ في دوائر البلاط. ومن الممكن أن يعاد كل شيء إلى هذا الأخ وإن كان غير

شرعي. فهل تريد ذلك؟. لا أظن.. على أي حال فكل شيء يتوقف عليك.. ولابد من إطاعة أوامر الملكة.. ولن تبارح هذا القصر حتى الغد، في مركبة ملكية تقصد بك إلى مجلس اللوردات.

سيدي اللورد.. هل تريد أن تكون من نبلاء إنجلترا؟ نعم أو لا؟.. إن الملكة تدبر لك مهاما جليلة.

سيدي اللورد فيرمان كلانشارلي. هذه هي اللحظة الفاضلة إن الأقدار لا تفتح بابا، إلا وتغلق في مقابله بابا آخر. وإذا سار الإنسان خطوة إلى الأمام.. فمحال أن يتراجع. سيدي اللورد. إن جوينبلان قد مات. فهل تفهم؟

ارتعد جوينبلان من رأسه إلى قدميه.. ثم عاد إلى رشده. وقال:

– نعم..

ابتسم باركلفدرو.. وانحنى. ثم وضع الصندوق تحت عباءته وغادر الغرفة.

ارسوس تحت المنظار

بقى ارسوس جامدًا في مكانه ممتقع الوجه بعد أن رأى جوينبلان يختفي داخل سجن سوثوارك. وهو لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل؟ وما لبث آخر الأمر أن فارق مخبأه، وعاد إدراجه متثاقلًا.

سار في الأزقة والمنعطفات عائدًا إلى خان (تادكاستر) وقد أطرق برأسه، وشبك يديه خلف ظهره. وفجأة وقف في مكانه، ورفع رأسه، ولطم جبينه بيده كمن يعود إلى الصواب. وأخذ يناجي نفسه بهذا الكلام.

– لا بأس! هذه نهاية طيبة! إنه مخلوق شرير ضال!. وقد أدى به انتقاداته للحكومة إلى هذا المصير.. هو ثائر. وكنت أضم في كوخي رجلًا ثائرًا.. ومن حسن الحظ أن تخلصت الآن منه.. فقد كان بقاؤه معنا يهددنا. ومن الخير أن يزج به في السجن.

عاد ارسوس إلى خان تادكاستر...

وانتصفت الساعة السابعة. واستقبله نيكلس عند الباب وهو لا يزال فريسة للجزع والارتياع.. وما كاد يراه حتى هتف: خيرًا؟

– ماذا تريد؟

– هل يعود جوينبلان؟ حان الوقت وسيحضر المتفرجون بعد قليل.. هل سنمثل هذه الليلة دور (الرجل الضاحك)؟

فأجاب ارسوس: أنا (الرجل الضاحك)..

وتطلع إلى وجه صاحب الخان وهو يضحك ضحكة داوية.. ثم صعد إلى

الدور الأول ونزع اللوحة المكتوب فوقها اسم (جوينبلان الرجل الضاحك)، وحملها تحت إبطه.

سأله نيكلس الذي رأى حركاته:

–لم فعلت هذا؟..

دوت ضحكة ارسوس مرة ثانية، وأجاب:

–إني أعود إلى الحياة الخاصة..

فهم صاحب الخان كل شيء.. وأمر غلامه جوفكوم أن يعلن لكل من يحضر من أفراد الجمهور أنه لن يكون تمثيل هذه الليلة، ثم حمل صندوق الدخل وألقى به في أحد الأركان.

دخل ارسوس (المسرح الأخضر).. وألقى اللوحتين في أحد الأركان، وذهب إلى ما يسميه بجناح السيدات.كانت ضيا نائمة. وقد جلست النوريتان قربها.

نظر ارسوس إلى ضيا وغمغم:

– هي تستعد لنوم أطول.

ثم نظر إلى النوريتين وقال لهما:

– انتهى كل شيء. لن يكون تمثيل هذه الليلة، ولا غدا، ولا بعد غد، ذهب جوينبلان إلى الأبد.

وألقى نظرة ثانية على ضيا وقال وهو يضحك ضحكة جافة:

– ما أشد هذه الضربة التي ستنزل على رأسها! ستفقد نور حياتها، بفقد جوينبلان ستفقد كل شيء.

أضاء ارسوس المصباح المعلق في السقف. وأخذ يروح ويغدو في أرجاء المركبة مفكرًا.

قال لنفسه: أنا متمالك كل قواي. إني أعد هذا الحادث طبيعيًا ومتى استيقظت ضيا صارحتها بكل شيء. ولن يطول وقع الكارثة فبذهاب جوينبلان إلى السجن. ستذهب ضيا إلى القبر، وسأعود إلى حياتي الهادئة الوادعة مع هومو، وسنستأنف طوافنا وترحالنا. آه!.. ها هي ذي تستيقظ.

استيقظت ضيا، وفتحت عينيها. فإن كثيرين من العميان يغمضون أعينهم وقت النوم. وكان محياها مشرقا كعادته.

قالت ضيا: فيبي. فينوس. لابد أن يكون وقت التمثيل جاء. أظن أني نمت طويلًا. أريد أن أرتدي ملابسي.

لم تتحرك النوريتان..

في هذه اللحظة التقت عينا ارسوس بعيني ضيا. فانتفض وهتف:

– ماذا تنتظران؟ ألا تسمعان أمر السيدة؟ هل بكما صمم؟ أسرعا! سيبدأ التمثيل بعد قليل.

تطلعت المرأتان إلى ارسوس في ذهول. فصاح:

– ألا تسمعان أصوات الجمهور؟.. فيبي.. البسي سيدتك.. خذي قيثارتك..

أطاعت النوريتان وقد حسبتا ارسوس فقد صوابه. أما ارسوس فإنه أسدل الستار الذي يفصل مخدع السيدات. وقال بعد أن وقف خلفه:

– انظر يا جوينبلان.. إن الفناء كاد يمتلئ بالجمهور. وهم يتزاحمون في

الخارج.. تقول أن فيبي وفينوس تزعمان إنهما لم تريا الجمهور؟ هما نوريتان حمقاوان! لا ترفع ستار الباب.. كن مؤدبًا، إن ضيا ترتدي ملابسها!

ساد السكوت.. ثم سمع صوت يقول: ما أجمل ضيا.

كان صوت جوينبلان.

انتفضت فيبي وفينوس.. والتفتا حولهما. كان الصوت صوت جوينبلان.. ولكنه صدر من فم ارسوس. مقلد الأصوات الأكبر.

أشار ارسوس إلى النوريتين من فتحة الستار ألا تبديا أدنى دهشة، ثم قال بصوته الطبيعي:

–اذهب يا جوينبلان. وفك هومو.

وعاد إلى المركبة وقال بصوت مرتفع:

– ما أكثر الجمهور الليلة.. ستكون حفلة حافلة.. ساعدني يا جوينبلان.. لننزل خشبة المسرح..

وفك ارسوس السلاسل وأدلى خشبة المسرح. ثم قال:

– لا ترفع الستار يا جوينبلان حتى يبدأ التمثيل.. تعالى يا فيبي.. وأنت يا فينوس.. دقا الطبول!

وقفت النوريتان مكانهما على خشبة المسرح في حيرة وذهول غير أنهما أطاعتا الأمر، وارتفعت أصوات الطبل تدوي في الفضاء.

وفي نفس الوقت استعان ارسوس بمهاراته وقدرته العجيبة في تقليد الأصوات.. فراح يمثل جمهورًا كاملًا.

كان يغني. ويصرخ.. ويتكلم. ويسعل. ويبصق. ويمخط ويلقي أسئلة

وأجوبة.

رفع الستار. وجرى التمثيل كالمعتاد. ولعب الذئب دوره بمهارة. ثم جاءت ضيا تغني بصوتها الملائكي. ومدت يديها تتحسس رأس جوينبلان.أسرع ارسوس إلى الشعر المستعار. فتناوله ووضعه على رأسه.. وكتم أنفاسه وقدم رأسه إلى ضيا.

قالت: ارسوس؟. أين جوينبلان؟

انتفض ارسوس.. وتطلع إلى ضيا. فإذا هي شاحبة اللون.. جامدة كالتمثال.

ثم استطردت في نبرات تنم عن اليأس:

– عرفت.. أنه تركنا. ذهب. كنت أعرف دائمًا أن له أجنحة.

ورفعت عينيها إلى السماء وأردفت:

– متى ألحق به؟

تعقد الموقف

ذهل ارسوس. فإن ضيا لم تخضع.

نظر إلى ضيا، وكانت صامتة. وأخذ وجهها يزداد شحوبًا. ووقفت جامدة في مكانها. في هذه اللحظة رأى ارسوس صاحب الخان واقفًا في الفناء حاملًا شمعة مضاءة، يشير إليه بيده. لم يحضر صاحب الخان إتمام التمثيل.. فقد طرق الباب زائر.. وذهب إليه نيكلس. ثم جاء زائر ثان. وقابله صاحب الخان كذلك.. ولم يفطن ارسوس إلى هاتين الزيارتين لانهماكه في تمثيل الرواية.

نزل ارسوس إلى صاحب الخان تلبية لإشارته. ووضع أصبعه على فمه. فاقتدى به نيكلس بدوره فوضع أصبعه على فمه. وتبادل الاثنان النظر لحظة. فتح صاحب الخان باب الغرفة السفلي بهدوء. فدخل ارسوس.. وأغلق الباب خلفهما. ووضع نيكلس الشمعة فوق الطاولة.. وهمس:

– فهمت أخيرًا يا ارسوس!.

– كلام فارغ!.

– أردت أن تفهم العمياء المسكينة أن كل شيء يسير كالمعتاد.

– لا يوجد قانون يحرم على ما فعلت.

– أنت شخص بارع.

– لا..

– إن مقدرتك تدعو إلى التهنئة. لكن عندي ما أقوله لك.

– هل يتصل ما عندك بالسياسة؟

– لا أدرى.

– لأني لن أصغي لك إذا كان الأمر كذلك.

– اسمع.. بينما كنت منهمكا في القيام بدور الممثلين والجمهور معا.

طرق الباب شخص.

– من هو؟

– شخص تكلم معي.

– ماذا قال؟.

– إني استمعت لكلامه.

–وماذا كان جوابك؟

– لا شيء.. فقد عدت لمشاهدة تمثيلك.

– و..!

– ثم جاء شخص ثان وطرق الباب

– من؟ نفس الشخص؟.

– لا شخص آخر.

– هل تكلم معك بدوره؟

– هو لم يقل شيئًا.

– فسر كلامك يا نيكلس.

– هل تدري من جاء أولا؟

– لست من المنجمين.

– هو صاحب (السرك) الكبير؟

– الموجود في نهاية الميدان؟

– نعم وهو يعرض عليك اقتراحًا..

– اقتراح!

– نعم..

– ما السبب؟..

– إن صاحب (السرك) كلفني أن أبلغك أنه شاهد موكب البوليس في صباح اليوم، ولكي يظهر لك صداقته، فإنه يعرض عليك خمسين جنيها فورًا في مقابل شراء (المسرح الأخضر) بما فيه، وفي جملتهم، الفتاة العمياء، والذئب، وأنت..

ابتسم ارسوس بأنفه وقال:

– نيكلس.. قل لصاحب (السرك) أن جوينبلان سيعود.

وتناول صاحب الخان أشياء كانت موضوعة فوق مقعد في الظلام، وقال:

– إن الزائر الذي جاء في المرة الثانية متصل بالبوليس، وقد جاء وذهب دون أن يفوه بكلمة واحدة، تاركا هذه الأشياء.

عرف ارسوس هذه الأشياء. فقد كانت ملابس جوينبلان. لم ينبس ارسوس بكلمة واحدة.. بل أومأ بيده إلى باب الخان في هيئة الأمر، فأطاع نيكلس وفتحه، واندفع ارسوس إلى الخارج.

تطلع نيكلس خلفه.. فرآه يركض بقدر ما تستطيع قدماه في الاتجاه الذي سار فيه موكب البوليس في الصباح.

وما كاد يمضي ربع ساعة حتى وصل ارسوس إلى الحارة الضيقة التي يقع فيها باب سجن (سوثوارك) الخلفي، حيث وقف يراقب هناك، لساعات طويلة. كانت الحارة مهجورة في النهار.. أما في الليل فهي مخوفة مرهوبة، لكن ارسوس تقدم بعزم وسار فيها غير هياب ولا متردد.

جاء ارسوس لتنسم أنباء جوينبلان.. ولم يكن يطمع في أكثر من هذا، وخيل إليه أن الجدران الصماء قد تنطق وتنبئه بشيء عن جوينبلان. وفيما كان ارسوس يتقدم في الحارة سمع دقات ساعة.. فأخذ يحصيها، وظلت الدقات تتوالى حتى جاوزت الخامسة عشرة، واستمرت تدق في فترات متباعدة أرهف ارسوس سمعه، ثم غمغم: ليست دقات ساعة.. بل دقات (الناقوس الصامت)، ما الذي سيحدث في هذا المكان المروع؟..

كانت السجون والحصون قديمًا تضم بين جدرانها نواقيس تسمى (النواقيس الصامتة).. تدق في المناسبات المحزنة، وكانت الدقات متباعدة خافتة حتى لا تكاد تسمع بعيدًا.

وصل ارسوس إلى المخبأ الذي وقف فيه في النهار... واستمرت دقات الناقوس تعكر السكون السائد وتبعث الرهبة في النفوس.أحس ارسوس بقلق.. وحدثته نفسه بوقوع مصاب، غير أنه تمالك أعصابه وراح يسأل نفسه عن معنى هذه الدقات التي لا تنقطع.حدق بنظره في الظلام إلى حيث كان يعرف موقع الباب المنخفض.

وفجأة، بدا في تلك الفجوة التي كانت أشد ظلامًا مما حولها نور أحمر.. فقد فتح باب السجن، وخرج منه رجل يحمل مشعلا في يده وتلاه رجلان. ثم رجل رابع عرف فيه ارسوس (الضابط الأسود) وكان يحمل في يده القضيب الحديدي.

تبع (الضابط الأسود) إلى الخارج موكب صامت سقط ضوء المشعل على وجوه أفراده. فإذا هم رجال البوليس الذين اعتقلوا جوينبلان في الصباح..

لم يبق لديه شك في أن هؤلاء الرجال هم الذين حملوا جوينبلان.. وقرر في نفسه أنهم ما داموا قد عادوا إلى الظهور فلابد أن يعود معهم جوينبلان..

حدق ارسوس في الظلام وراح يسأل نفسه:

– ترى هل يفرجون عن جوينبلان؟

ظهر مشعل آخر في فتحة الباب، دليلًا على انتهاء الموكب.وتطلع ارسوس في لهفة لرؤية السجين الذي سيخرج مع هذا الموكب. واعتقد أنه سيرى جوينبلان بعد قليل.

خرج أربعة رجال يحملون نقالة مغطاة بقماش أسود. وجاء في أثرهم رجل يحمل مجرفه على كتفه. ثم انتهى الموكب بظهور رجل يحمل مصباحًا ثالثًا، وكان يتلو في كتاب معه.. وربما كان القس.وتبعت المحفة موكب رجال البوليس الذين انعطفوا إلى اليمين. وفي هذه اللحظة وقف الرجل السائر على رأس الموكب. وسمع ارسوس صرير مفتاح..

وفتح باب في الجدار المقابل. هو جدار المقبرة.ونفذ أفراد الموكب جميعا إلى الداخل. ثم أغلق الباب خلفهم.

سمعت أصوات خافته. هي بلا ريب أصوات القس وحفار القبور الأول يرتل صلاته، والثاني يهيل على القبر أكوام التراب..

ثم انقطعت الأصوات. وفتح باب المقبرة. وخرج أفراد الموكب الجنائزي كما دخلوا. ولكن بغير الجثة.

ثم أغلق باب المقبرة. وفتح باب السجن، ودلف الجميع في صمت وسكون

إلى الداخل، ثم ساد الظلام، وانقطع صوت الناقوس.

رأى ارسوس أمامه وقائع متسلسلة. فقد اعتقل جوينبلان على نحو غامض. وأعيدت ملابسه مع أحد رجال البوليس.وحملت جثة إلى القبر. فما معنى ذلك؟. هتف ارسوس: مات! ثم هوى على الأرض، وقال في صوت مؤثر:

– مات!. قتلوه! جوينبلان. ابني!. ولدي.

وأخذ يبكي بكاء مرًا.

التصفية

كان ارسوس يفخر بأنه لم يبك في حياته. لكن العبرات المختزنة في ما قيه طوال العمر سالت مدرارًا. فبكي طويلًا.

مرت الساعات، وبزغ الفجر، وتبددت جيوش الظلام فوق ملعب (تارنزو) وخان (تادكاستر) ولم يأو نيكلس صاحب الخان إلى فراشه بعد، فإن الحادث الواحد قد يؤرق أكثر من شخص واحد.

قلق نيكلس. وحدثته نفسه بوقوع متاعب. وأخذ يفكر. ندم لتأجير فناء الخان لارسوس. وراح يلتمس طريقة لفسخ التعاقد، والتخلص من هذه الفرقة التي ستوقعه تحت طائلة القانون.

وفجأة طرق باب الخان طرقة قوية، فأسرع نيكلس وفتح النافذة قليلا وهو يرتجف.

رأى جماعة من رجال البوليس عند الباب على رأسهم رجلان عرف في أحدهما (الضابط الأسود) الذي رآه في صباح الأمس ولم يعرف الرجل الثاني. لكنه كان باركلفدور. طرق الباب مره ثانية بعنف. فأسرع إليه نيكلس وفتحه وقد تساقط العرق فوق جبينه. قال (الضابط الأسود) في اللهجة صارمة ارسوس!

أجاب صاحب الخان باحترام:

– هو يقيم هنا يا سيدي.

– أعرف.. قل له أن يأتي. ليس هنا الآن يا سيدي.

– وأين هو؟

– لا أدري.

– كيف ذلك؟

– لم يأت من الخارج.

– إذن لابد أن يكون قد خرج في وقت مبكر.

– لا.. خرج متأخرًا..

– يا لهم من متشردين!

وقال نيكلس أخيرًا في تلطف:

– ها هو ذا جاء يا سيدي.

جاء ارسوس حقا، كان يسير بخطوات متثاقلة.. وقد امتقع وجهه.. وجمدت عيناه. وأخذ الهواء يعبث بخصلات شعره البيضاء. إذ كان عاري الرأس.. بعد أن غادر الخان بغير قبعة.

هتف صاحب الخان:

– ارسوس!. تعال! إن السادة يريدون أن يكلموك..

انتفض ارسوس!. كمن يسقط من فراش كان مستغرقا فوقه في سبات عميق.. وقال:

– ماذا جرى؟

رأى رجال البوليس. وعلى رأسهم الضابط الأسود. فكانت صدمة جديدة.. أشار إليه الضابط أن يدخل إلى الخان. فأطاع. جلس الضابط وباركلفدرو في مقعدين أمام الطاولة. وبقي ارسوس ونيكلس واقفين. وتجمع

رجال البوليس خارج الباب. تفرس الضابط في وجه ارسوس وقال له:

-عندك ذئب.

أجاب ارسوس: الواقع أنه..

قاطعه الضابط:

– هذه مخالفة.

– هو خادمي.

وبسط الضابط يده فوق الطاولة. وقال:

– أيها المهرج!. لابد أن تغادر إنجلترا! مع الذئب غدا. فإن لم تفعل، فسيؤخذ الذئب ويقتل.

ارتعدت أوصال ارسوس، لكنه لم يجب. فقال الضابط:

– هل سمعت؟

أومأ ارسوس برأسه، فاستطرد الضابط: ثم تسجن.

غمغم ارسوس:

-سيدي

– ماذا؟!

– هل يجب أن نغادر كلانا إنجلترا؟

– نعم.. اليوم.

– وما العمل...؟

طرب نيكلس من هذا التطور.. فقد أعانه رجال البوليس على التخلص

من ارسوس على أيسر وجه.. وقال وهو يشير بأصبعه إلى ارسوس:

– سيدي.. يريد هذا الرجل أن يعرف كيف يغادر إنجلترا اليوم.. ليس أسهل من هذا.. يوجد في نهر التيمز في النهار والليل، سفن مسافرة وهي تذهب إلى إسبانيا وإلى هولندا. وفي هذه الليلة ستبحر سفن كثيرة حوالي الساعة الواحدة صباحا، أي في وقت المد، ومنها السفينة (فوجرت) قاصدة إلى روتردام..

قال الضابط مخاطبًا ارسوس:

– ليكن.. سافر بأول سفينة.. سافر في (فوجرات).

فقال ارسوس:

– سيدي. لو كان عندي مركبتي الصغيرة السابقة لهان الأمر.. لكن.

– لكن ماذا؟

– لكني أملك الآن (المسرح الأخضر) وهو مركبة ضخمة يجرها جوادان. ومهما كان اتساع السفينة، فلا يمكن نقل المسرح إليها.

فقال الضابط:

– وماذا يهمني من هذا، سيقتل الذئب؟

ارتعد ارسوس.. أما صاحب الخان فابتسم.. وخاطبه:

– ارسوس. يمكنك أن تبيع (المسرح الأخضر).

فنظر ارسوس إلى نيكلس دون أن يتكلم.. فاستمر هذا:

– ارسوس. هناك اقتراح عرض عليك.

– ممن؟

– هو اقتراح لشراء المسرح والجوادين والنوريتين و...

– ممن؟..

– من صاحب (السيرك) المجاور.

تذكر ارسوس، فقال:

– هذا صحيح.

ثم التفت نيكلس إلى الضابط وقال:

– سيدي.. يمكن إتمام الصفقة اليوم. إن صاحب (السرك) المجاور يريد أن يشتري المركبة والجوادين. فقال الضابط:

– إن صاحب (السيرك) محق في طلبه، فإنه سيحتاج إلى المركبة والجوادين، فهو سيرحل اليوم كذلك، إن أشراف مقاطعة تارنزو قد شكو من هذه الضوضاء المستمرة في ملعب تارنزو، وقد اتخذ القاضي الإجراءات اللازمة، ولن تبقى مركبه واحدة هنا بعد هذه الليلة، لابد من وضع حد لهذه الفضائح، إن السيد المحترم الذي تنازل بتشريف هذا المكان..

وكف الضابط عن إتمام جملته وانحنى محييا باركلفدرو الذي رد تحيته، ثم استطرد:

– إن السيد المحترم الذي تنازل بتشريف هذا المكان قادم من وندسور ومعه بعض الأوامر. أن النطق الملكي السامي يقضي (بإزالة كل شيء).

فكر ارسوس طويلا أثناء الليل. وألقى على نفسه بعض الأسئلة بشأن النقالة التي رآها. ولم يستطع أن يجزم أخيرًا بأنها كانت تحمل جوينبلان دون سواه. فإن مجرد ظهور النقالة ليس دليلًا كافيًا على أن الذي كانت تحمله هو

جوينبلان وأخذ الشك يخامره.

تغلب الأمل على اليأس. وقرر ارسوس أخيرًا أنه إذا كان محتملًا أن جوينبلان هو الذي رآه منقولًا على الأكتاف. فليس هذا مؤكدًا.

وانحنى ارسوس أمام الضابط وقال:

– سيدي المحترم. سنرحل جميعا اليوم بالسفينة (فوجرات) إلى روتردام. سأبيع (المسرح الأخضر) والجوادين. والطبول والنوريتين. لكن لي زميلا. لا يمكن أن أتركه بعدي. هو جوينبلان.

أجاب صوت:

–جوينبلان توفى.

أحس ارسوس بقشعريرة باردة. وكان المتكلم باركلفدرو.

انطفأ آخر شعاع من الأمل. ولم يبق مجال للتردد والشك مات جوينبلان حقا. انحنى ارسوس أمام المتكلم.

كان نيكلس طيب القلب. غير أنه جبان مخلوع القلب. ومتى استولى الخوف على نفسه أمات عواطفه وجعله حيوانًا متحجر الشعور ولذلك قال:

– هذا يسهل الموقف.

ووقف خلف ارسوس يفرك كفيه في أنانية غريبة وكان يقول:

– نجوت بجلدي..

وأطرق ارسوس برأسه. أنفذ في جوينبلان حكم الموت. وقضى عليه بالنفي.. ولم يبق أمامه إلا أن يذعن. وأحس كأنه في عالم الأحلام. لمس باركلفدرو كتفه.. فارتعد.. وهمس في أذنه:

– إليك عشرة جنيهات.. أرسلها إليك شخص يريد لك الخير.

ووضع باركلفدرو كيسًا صغيرًا فوق الطاولة أمام ارسوس. كان جوينبلان قد عهد إلى باركلفدرو بصندوق يحتوي على ألفين من الجنيهات منحه إلى ارسوس كما تقدم. لكن باركلفدرو لم يعط ارسوس سوى عشرة جنيهات فقط من هذا المبلغ الجسيم.. وكان مطمئنًا في ضميره إلى كفاية هذه القيمة. ولو أعطي أكثر من هذا لكان من الخاسرين. فقد اكتشف نبيلًا من العدم.. ومن الحق في رأيه، أن يكون أول المتمتعين بالغنيمة.

التفت باركلفدرو إلى الضابط وقال له:

–إلى وندسور بأقصى سرعة، فإنه يتعين علي أن أكون هناك في ظرف ساعتين.. عندي أنباء أود أن أبلغها وأوامر أتلقاها..

فنهض الضابط الأسود واتجه إلى الباب وفتحه.. وألقى على رجال البوليس نظرة صامتة، وأشار إليهم إشارة الأمر... فدخلوا في سكون ينذر بقرب استخدام القوة.

ارتاح نيكلس إلى هذا الختام الذي وضع حدا لمتاعبه. على أنه ما كاد يرى رجال البوليس يدخلون حتى ساوره الخوف أن يقبضوا على ارسوس في بيته. فإن حادثي اعتقال في فترة متقاربة يسئ إلى سمعة الخان.. ولذلك التفت إلى الضابط قائلا:

– اسمح لي يا سيدي المحترم أن أقرر أن وجود هؤلاء السادة لم يعد له مبرر بعد أن تقرر إبعاد الذئب عن إنجلترا، وبعد أن تبين أن هذا الرجل ارسوس لن يقاوم. وأرجو ألا يغيب عنك أن رجال البوليس وأن كانوا يسدون عملًا جليلًا في خدمة المملكة. فإن وجودهم في بيتي مما يسيء إلي ويسبب لي أضرارًا

جسيمة.. والواقع أنه ما دام هذا الرجل ارسوس سيطيع الأوامر ويرحل.. فمن ذا الذي يقبض عليه بعد ذلك؟

أجاب الضابط:

– أنت..

انقضت هذه الكلمة على رأس نيكلس كالصاعقة.. وقال الضابط في صوت مرتفع:

– يا نيكلس بلمبتري صاحب هذا الخان. إن المهرج والذئب متشردان.. وقد تقرر طردهما.. لكن المذنب الحقيقي هو أنت. فإن القانون قد انتهكت حرمته في بيتك، وبموافقتك. قد كان بيتك وكرا لهذه المخالفة والفضيحة. ولذلك ألغى الترخيص الممنوح لك.. ولابد أن تنال جزاءك، وتذهب إلى السجن...

أحاط رجال البوليس بصاحب الخان. واستطرد الضابط مشيرًا إلى جوفكوم:

– اقبضوا على هذا الغلام كشريك.

أطبقت يد أحد رجال البوليس على عنق جوفكوم الذي نظر إليه متسائلًا ولم يفهم شيئًا. فقد رأى كثيرًا من العجائب. ولم يدر أن ما يقع الآن هو نهاية المهزلة..

وشبك الضابط ذراعيه فوق صدره وقال في عظمة:

– قضي الأمر يا نيكلس. وتقرر أن توضع في السجن وسيغلق هذا الخان حتى يكون فيه عبرة لمن يعتبر. والآن.. هلموا بنا.

امرأة هائلة

استقر جوينبلان فوق جبل شامخ.. وألفى أمامه القصور والجاه والنفوذ والسعادة البشرية تمتد جميعا حتى الأفق. كان مثله كمن ينام في جحر مظلم ثم يستيقظ في جنة الفردوس..

إن جوينبلان المتشرد الذي لم يكن يملك حق التقاط وردة بين الحشائش، سيقطف النجوم في السماء!

بزغ الفجر وحمل معه ضوء النهار.

وفي هذا الضوء أشرق في نفسه شعاع وقال له:

– وأين ضيا؟

إن الضوء هو لون من الصوت وإلا فما فائدة الشمس إذا لم توقظ الضمير النائم؟ أحس جوينبلان كأنما عاد إلى الحياة من جديد. وبسطت فضائل نفسه أجنحتها وحلقت بعيدًا عنه حينا.

فلما بدا له اسم "ضيا" أحس بالنور يهبط على نفسه من جديد..

وأخذ من جديد يتنقل في الغرفة كوحش في قفصه. ثم وقف في مكانه وراح يقول:

– ضيا!. أين أنت؟. لأول مرة نفترق.. من حفر بيننا هذه الهوة؟ أنا هنا في (وندسور).. وأنت هناك في (سوثوارك).. هذا لا يمكن.. هذا لا يكون.. ماذا فعلوا بي؟ أني تغيرت.. أصبحت سيد.! هل تدرين ما حدث يا ضيا؟. أنت سيدة. أن ما حدث يثير الدهشة والذهول! يجب علي الآن أن أرجع إلى الطريق

الطبيعي. من ذا الذي أضلني؟. هناك رجل تكلم أمامي كلامًا غامضًا! وطلب مني أن أنسى الماضي! وحسبني. أنا!

ضيا!. ارسوس!. نحن معا. أنا منكم وأنتم مني.. تعالوا.. لا.. بل سأذهب إليكم. في الحال. أني انتظرت طويلًا.

تذكر أن هذا الرجل قال أنه لا يمكن أن أفارق القصر! سنرى.. مركبة وجيادًا! أين الخدم؟. أنا هنا السيد الآمر. سأحطم الأقفال وأقتحم الأبواب، وأغمد السيف في صدر كل من يحاول اعتراضي.إن لي زوجة.. هي ضيا. وأن لي أبا.. هو ارسوس.. أن بيتي قصر. أمنحه لارسوس.. واسمي تاج، أخلعه على جبين ضيا.. انتظري يا ضيا. سأصل إليك بعد قليل.

رفع جوينبلان أول ستار صادفه في طريقه. وخرج من الغرفة مندفعا. ألفى نفسه في رواق.. فسار إلى الأمام. ووصل إلى رواق ثان. فتحت أمامه جميع الأبواب. وسار من غرفة إلى غرفة ومن ممشى إلى ممشى، باحثا عن باب القصر.

حواء

كانت القصور التاريخية القديمة ذات الطراز الإيطالي، ومنها قصر كورليون الذي سار فيه جوينبلان، سلسلة من الغرف والمماشي والأبهاء! حافلة بأفخر التحف والأثاث، يضل السائر فيها، ويتيه في جنباتها..

سار جوينبلان وقتًا طويلًا.. واجتاز غرفا لا نهاية لها وكلما حسب أنه أوشك على الخروج، إذا به يستأنف طوافه من جديد.

وفي أثناء ذلك كله لم يصادف في طريقه مخلوقًا واحدًا.. وفجأة سمع صوتًا خافتًا كخرير ماء كان في ممشى ضيق مظلم في نهايته.. فتقدم جوينبلان إلى الستار وأزاحه جانبًا ودخل في غير تردد ألفى نفسه في غرفة مستطيلة، أرضها وجدرانها وسقفها من المرمر الناصع البياض، وفي وسطها حوض من المرمر الأسود تنبثق في وسطه عين من ماء دافئ معطر.. ولم يكن بالغرفة من الأثاث سوى مقعد مستطيل عليه وسائد وأغطية من الحرير الأبيض الثمين.

وفي الجانب المقابل للباب الذي دخل منه جوينبلان ووقف جامدًا مذهولًا.. كانت فتحة تمتد في الجدار المرمري حتى السقف، يتدلى فوقها ستار من نسيج فضي شفاف، رأى جوينبلان من خلاله امرأة عارية.

لم تكن المرأة عارية تماما.. فقد كان يكسوها ثوب شفاف يتدلى فوق قدميها، وهو أخطر وأشد فتكا من الجمال السافر المكشوف.

كان الستار الشفاف يفصل الغرفة المرمرية، أو الحمام، عن الغرفة المجاورة، وهي غرفة نوم، وهذه الغرفة مكسوة جدرانها بمرايا متلاصقة مذهبة الأطراف، فعكس صورة السرير القائم في وسط الغرفة، وكانت تتمدد فوقه امرأة نائمة

كانت مجردة.. لا يحجبها عن عين الناظر سوى الستار والثوب.. وكلاهما شفاف.. وعند قدميها رداء من الحرير الثمين.. وقرب السرير طاولة للمطالعة قائمة على محور متحرك، فوقها كتاب مفتوح وبعض الشموع. لم يلتفت جوينبلان إلى شيء من هذا.. فقد استقرت عيناه على المرأة.. وأفعمت نفسه في الحال بالإحساسات العنيفة الزاخرة.

عرفها.. كانت الدوقة.. كانت المرأة التي تجسمت في أحلامه وسطرت تلك الرسالة الغريبة.. المرأة الوحيدة التي رأته واشتهته.

كان جوينبلان قد أقصى هذه الأحلام من خاطره... وأحرق الرسالة.. ونفى ذكراها من مخيلته. ولم يعد يفكر فيها. ونسيها.وإذا به يراها من جديد.. يراها أشد سلطانًا وقوة.. فإن المرأة العارية هي امرأة قوية مسلحة.

أخذ يلهث.. وأحس كأنه يموج في سحابة تعبث بها العواصف. نظر بعينيه.. فإذا هي أمامه حقا.. عارية. حاول أن يهرب، لكنه أدرك عبث المحاولة. فقد ركزت عيناه في هذا المشهد، وكأنه سمر في مكانه.

جاشت الانفعالات في صدره. وكادت الإحساسات المضطرمة العنيفة تخنقه. وأحس بقوة قاهرة تثقله وتهبط به إلى أسفل.. وشلت إرادته. فكيف يقوى على المقاومة؟. وأحس بأنه يهوى على أم رأسه في الهاوية السحيقة.

كل هذا والمرأة غارقة في نومها..

ومما زاد في ثوران العاصفة التي كانت تجيش في نفسه أنه لم ير الأميرة ولا الدوقة، ولا السيدة. بل رأى أمامه المرأة. ولم يكن أمامه أمل في الإقصاء والصد والأعراض عنها بسبب دمامته فقد كتبت إليه من قبل تنبئه بأنها تحبه..

فكيف الإفلات؟. وكيف الهرب؟

استيقظت النائمة فجأة. وجلست فوق السرير بحركة رشيقة وتناولت جدائل شعرها الذهبي فوق محياها وكشف ثوبها عن كتفها. وبسطت أطرافها وتثاءبت كأنها نمرة في شروق الشمس. جذبت الرداء الموضوع عند قدميها. وانحدرت من السرير ووقفت بجانبه. مجردة. وفي مثل خطف البرق التفت في الرداء الحريري.

ذهبت إلى باب خلف مرآة. ونقرت فوقه بأصبعها، وقالت:

– هل يوجد أحد؟. لورد دافيد. هل جئت؟. كم الساعة الآن هذا أنت بابار كلفدرو؟

ثم تحولت عن المرآة وقالت:

– لا.. ليس الصوت هنا. هل هناك أحد في الحمام؟ هل تجيب؟ لا يمكن بالطبع. لا يمكن أن يجيء أحد من هذا الطريق.. ذهبت إلى الستار الفضي وأزاحته ودخلت الغرفة المرمرية.

جمد جوينبلان في مكانه.. استحال الاختفاء. وعجز من الحركة وود لو انشقت الأرض وابتلعته.

رأته. حدقت مشدوهة، لكن بلا أدنى استياء. ثم قالت في صوب هو مزيج من الفرح والازدراء: من؟ هذا هو جوينبلان!

وفجأة وثبت وارتمت فوق عنقه. وأمسكت رأسه بين ذراعيها العاريتين.. ثم دفعته فجأة كذلك إلى الخلف، وأمسكت منكبيه بيديها. ووقفت أمامه وجها لوجه. وأخذت تحدق إليه بنظرة غريبة.خيل إلى جوينبلان أن شعاعًا من جهنم ينبعث من إحدى عينيها، ونورًا من السماء ينبثق من العين الثانية.

سحر كلاهما بهذه النظرة.. هو بجمالها. وهي بدمامته.

هتفت: آه!. ما أبرعك!. أنك جئت. عرفت أني مضطرة إلى مغادرة لندن. وتبعتني!. حسنًا فعلت. إن وجودك هنا يدل على أنك أعجوبة حقًا!.

أراد جوينبلان أن يتراجع. لكنها أنشبت مخالبها في كتفيه. واستطردت: إن الملكة "أنا" البلهاء أمرتني بالحضور إلى قصر وندسور دون أن تذكر الأسباب. ولما وصلت كانت مختلية مع مستشارها الأحمق. لكن كيف نجحت في الدخول إلى هنا! لا ريب أن الوصيف هو الذي أدخلك.. آه هو ذكي. وسأمنحه مائة جنية.. من أي طريق دخلت؟. لكن لا تتكلم. إن التفسير يقلل من طرافة الموضوع. إني أفضل العجائب، أما أنك هبطت من السماء، أو وثبت من الجحيم. هذا أقرب إل طبيعتك. لك حق في الدخول كالآلهة. رضيت، أنت حبيبي.

ارتاح جوينبلان.. وأنصت. لم يبق أمامه شك بعد الآن من ناحية الرسالة. فقد عززت المرأة الآن معناها بكلامها. جوينبلان معشوق!. والتي تعشقه هي دوقة! ولم يتمالك أن طغى الغرور والزهو على نفسه..

استطردت الدوقة: ما دمت هنا، فقد كتب هذا في لوح القدر. إني لا أطلب شيئًا آخر.. ما كدت أراك لأول مرة حتى قلت لنفسي "هذا هو.. أني أعرفه. هو وحش أحلامي.. سيكون لي". ولذلك كتبت إليك.

أن لك وجهًا بديعًا! أنت مخلوق خلقًا رائعًا!. عجيب أنك هنا! متى وصلت؟. كم لبثت هنا؟ هل رأيتني عارية؟ إني جميلة.. أليس كذلك؟ كنت أوشك أن أستحم.. أواه! كم أحبك! قرأت رسالتي هل قرأتها بنفسك؟. هل قرأها لك أحد؟. هل تعرف القراءة؟.. ربما كنت جاهلًا. أني ألقى أسئلة. لكني لا أجيب عنها. تعال بين ذراعي..

جلست فوق المقعد المستطيل وأجلسته بقربها. وكانت كلماتها تنصب في أذني جوينبلان كأنها دوي العاصفة. ولم يكد يفقه معانيها..كانت عيناها مغمضتين إعجابًا. وكانت تتكلم بجنون وفي صوت رقيق متقطع...

– إني أحبك. لا لأنك مشوه ممسوخ فقط، بل لأنك وضيع منحط..

غمغم جوينبلان:

–سيدتي..

لكنها وضعت يديها على فمه وقالت:

– اسكت!.. أنا عشيقتك.. عبدتك!

تفرست فيه بنظرة شفت عن أعماق نفسها، وكان رداؤها المهدل يثير آلافا من الإحساسات العنيفة. ولم يقو على النطق بكلمة واحدة.. أحس بالدم يجمد في عروقه وهو يسمع كلماتها النارية..

توقفت عن الكلام.. تطلعت إليه، ثم هتفت وقد جن جنونها:

– آه! أيها الوحش!

وفجأة أمسكت يديه وقالت:

– جوينبلان! أنا العرش.. وأنت المنصة.. لنتحد ولنمتزج معا على قدم المساواة، أواه! ما أسعدني بهذا السقوط! أود أن يعرف العالم كله إلى أي حد بلغت من الإسفاف والوضاعة!. أنا على استعداد للنزول إلى حضيض أدنى، أفعل بي ما شئت.. إني خلقت كي يقبل (جوبيتر) قدمي، ويبصق الشيطان في وجهي، كم أتلهف أن أقضي ليلة معك، تحت أصوات الموسيقى، في قارب ذهبي فوق سطح المحيط! اشتمني! اضربني! أركلني بقدميك! قيدني! عاملني

كالوحش! إني أعبدك؟

كان شعرها بتموج كمعرفة الأسد.. وصدرها ينكشف ويحتجب، وأحس جوينبلان بأنه قد انهزم أمام هذا الهجوم الرائع.

هتفت: أحبك!

ثم قبلته قبلة هي أقرب إلى العض.

كاد جوينبلان يجن حينما رأى أنه معشوق امرأة تراه بعينيها.. وحينما أحس بهاتين الشفتين الرائعتين تضغطان على فمه المشوه.

رددت قولها: أحبك!

ثم قذفت ساعديها بحركة جنونية وطوقت عنقه.. فأخذ جوينبلان يلهث.

وفجأة سمع صوت جرس يدق في داخل الجدار.. فأدارت الدوقة رأسها وقالت:

– ماذا تريد مني؟

وما كادت تتم كلامها حتى فتحت نافذة خفية في الجدار قرب المقعد الذي جلست فوقه الدوقة وجوينبلان، وامتد من داخلها حامل مكسو بالمخمل فوقه رسالة كبيرة مختومة بالشمع.

مالت الدوقة إلى الحامل وهي لا تزال تطوق جوينبلان بذراعيها، وتناولت الرسالة ثم لمست الحامل.. فارتد إلى مكانه في الجدار. وأغلقت النافذة، وسكت صوت الجرس.

فضت الدوقة ختم الغلاف الذي رأى جوينبلان فوقه الشعار الملكي وأخرجت من داخله رقعتين من الجلد إحداهما صغيرة والثانية كبيرة.

بدت على الدوقة دلائل الاستياء. وأخذ صدرها يعلو ويهبط ولمعت عيناها انفعالًا. قالت:

– آه!. ماذا بعثت إلي؟ مجموعة أوراق! يا لها من امرأة مفسدة للسرور!

فتحت الرقعة الجلدية الصغيرة، وقالت:

–هذا خط الملكة! خط شقيقتي جوينبلان! هل تعرف القراءة؟

أومأ جوينبلان برأسه إيجابًا.

تمددت فوق المقعد وأعطت جوينبلان الرقعة. وأخذت تراقبه بنظرة تشف عن الهيام. ثم قالت: لا بأس.. أنت لي. ابدأ وجباتك يا حبيبي. اقرأ على ما كتبته الملكة..

تناول جوينبلان الرقعة وبسطها، وراح يتلوها بصوت يتهدج بشتى الانفعالات كما يلي: "سيدتي– يسرنا أن نبعث إليك مع هذا بصورة من اعتراف ممهور بتوقيع مستشارنا المحبوب وليام كوبر رئيس مجلس اللوردات، يتضمن حقيقة هامة خطيرة. هي الاهتداء إلى الابن الشرعي للورد لاينوس كلانشارلي، تحت اسم جوينبلان. بين أحقر صفوف المهرجين والمشعوذين والمتشردين. وطبقا لقوانين الدولة وعملا بالحقوق بالوراثية، سيحتل اللورد فيرمان كلانشارلي، ابن اللورد لاينوس، مركزه ويتبوأ مقعده في مجلس اللوردات اعتبارًا من اليوم...

" ولما كنا نهتم بسعادتك، ونرغب في الاحتفاظ لك بالتمتع بممتلكات كلانشارلي في هنكرفيل، فقد قررنا إبداله باللورد دافيد ديري مويريه، ونوصيك به خيرًا..

وقد أمرنا بذهاب اللورد فيرمان إلى قصر كورليون.. ونأمر بصفتنا ملكة

وأختنا، أن يكون اللورد فيرمان كلانشارلي المذكور، المعروف باسم جوينبلان زوجًا لك، وأن عليك أن تتزوجيه. هذه هي رغبتنا السامية".

وفيما كان جوينبلان يتلو هذه الرسالة بصوت متهدج، نهضت الدوقة قليلًا من تمددها، وأصغت إليه باهتمام. فلما فرغ من تلاوته انتزعت الوثيقة من يده. ثم تناولت الوثيقة حيث كانت ألقتها على الأرض وألقت عليها نظرة سريعة. فإذا هي تتضمن صورة اعتراف عصابة السفينة (ماتوتينا) مصدقًا عليها بتوقيعي قاضي (سوثوارك) ومستشار الملكة...

قالت الدوقة أخيرًا: ليكن..

ثم أومأت بأصبعها إلى المدخل الذي جاء منه جوينبلان وقالت بهدوء:

–أخرج..

تحير جوينبلان.. وقف في مكانه جامدًا.. فاستطرد في نبرات باردة:

– ما دمت زوجي. فلتخرج.

لم يتحرك جوينبلان من مكانه. وأطرق برأسه كالمذنب. فأردفت:

– لا حق لك في الوجود هنا. فهذا مكان عشيقي..

لم يتحرك جوينبلان.. فقالت:

– لا بأس. سأخرج أنا.. إذن فأنت زوجي!. لا أفضل من هذا. إني أمقتك.

ونهضت. وأومأت إليه بتحية كلها أنفة واستكبار.. وغادرت الغرفة..

مقابلة

بقى جوينبلان وحده. وبلغ اضطرابه العقلي مداه. وشل تفكيره ولم يتمالك أن هوى فوق المقعد الذي تركته الدوقة.وفجأة سمع وقع أقدام. وصوت رجل صدر من الناحية المقابلة للباب الذي خرجت منه الدوقة. دخل الرجل.. كان مرتديا سترة بحرية فخمة موشاة بالذهب يتدلى منها سيف، وممسكًا بيده قبعة بها بضع ريشات زاهية.

وثب جوينبلان كأنما حركة لولب خفي. فقد عرف الرجل وعرفه الرجل أيضًا. وصدرت منهما معا هاتان الكلمتان:

– جوينبلان!

– توم جيم جاك.

تقدم الرجل إلى جوينبلان الذي شبك ذراعيه فوق صدره وقال له:

– ماذا تفعل هنا يا جوينبلان؟

– وأنت يا توم جيم جاك. ماذا تفعل هنا؟

– هل تنكرت يا جوينبلان حتى تسنى لك الدخول إلى هنا؟

– وأنت أيضًا يا توم جيم جاك؟.

– جوينبلان ما هذه الملابس الفخمة التي ترتديها؟

– توم جيم جاك. ما معنى هذه السترة البحرية؟

– أنا لا أجيب على أسئلة يا جوينبلان.

– ولا أنا يا توم جيم جاك.

–أنا هنا في بيتي يا توم جيم جاك.

– لن أدعك تردد كلماتي. أنت تسخر مني. لكن معي عصا ضع حدا لهذا المزاح أيها المهرج الأبلة.

امتقع وجه جوينبلان.. وقال:

– بل أنت الأبلة. وستقدم لي ترضية كافية عن هذه الإهانة.

– سأنازلك بالأيدي ما شئت وفي مسرحك

– بل هنا. وبالسيوف.

– يا صديقي جوينبلان. إن السيف سلاح السادة. ولا أقاتل به سوى أندادي. نحن بالأيدي نتساوى. أما بالسيف فلا. في وسع توم جيم جاك أن ينازل جوينبلان في (خان تاد كاستر) أما في وندسور فالحال مختلف.. أفهم هذا جيدًا. أنا (فيس أميرال).

– وأنا عضو في مجلس اللوردات.

فانفجر الرجل ضاحكًا وقال:

– ولم لا تكون ملكًا. لكنك محق. فالممثل يلعب جميع الأدوار.

– أنا نبيل من نبلاء إنجلترا وسنتبارز.

– إن الموقف أصبح يدعو إلى الملل يا جوينبلان.. لا تحاول أن تجادل من يأمر بجلدك. أنا اللورد دافيد ديري موير.

– وأنا اللورد كلانشارلي. وضحك اللورد دافيد مرة أخرى

– أحسنت جوينبلان هو اللورد كلانشارلي! أصغ إلي. إني أعفو عنك. هل

تدري السبب لأننا عاشقان لامرأة واحدة.

أزيح الستار، وقال صوت:

– أنتما الزوجان، أيها السيدان.

التفت كلاهما.. وهتف اللورد دافيد:

– باركلفيدرو!

كان القادم هو باركلفدرو حقا. وانحنى أمام اللوردين وهو يبتسم وجاء في أثره رجل رزين وقور المظهر يحمل في يده عصا قصيرة سوداء.تقدم الرجل. وانحنى ثلاث مرات أمام جوينبلان.

وقال له:

– أنا رئيس التشريفات الملكية. وقد جئت لاستدعاء فخامتكم إطاعة لأوامر جلالة الملكة.

في مجلس اللوردات

كانت يد الأقدار تدفع جوينبلان إلى الأمام، فلا يفيق من دهشة حتى تواجهه دهشة أخرى. في اليوم نفسه سارت مركبتان ملكيتان من وندسور إلى لندن يحوطهما الحرس الملكي، وكان في الأولى رئيس التشريفات ممسكًا عصاه السوداء بيده، وبجانبه وسادة من المخمل تحمل علبة سوداء عليها الشعار الملكي.

وجلس في المركبة الثانية رجل يلبس قبعة رحبة تخفي ملامح وجهه عن الأعين.. ذلك الرجل هو جوينبلان، وكان ذاهبًا إلى مجلس اللوردات..

ولما وصلت المركبتان إلى (برنتفورد) قرب لندن وقفتا، ونزل رئيس التشريفات من مركبته ومعه الوسادة المخملية، فأسلمها إلى أحد الضباط، وذهب إلى مركبة مذهبة الأطراف تجرها أربعة جياد وتحوطها طائفة من الحشم كانت تنتظر، فتح بابها ثم توجه إلى مركبة جوينبلان ففتح بابها كذلك وهو ينحني باحترام.. ودعا الراكب إلى الانتقال إلى المركبة الجديدة.

ترك جوينبلان المركبة الملكية.. ودلف إلى المركبة المذهبة.. أما رئيس التشريفات فقد جلس مع الضابط حامل الوسادة المخملية في المقعدين الأماميين.

كان الحشم في ملابس زاهية شديدة الفخامة.. ولم يتمالك جوينبلان رغم حيرته واضطرابه أن سأل رئيس التشريفات:

–لمن هؤلاء الحشم؟

– هم خدمك يا سيدي اللورد..

تقرر أن يعقد مجلس اللوردات هذه الليلة.. فقد جرت العادة أن يجتمع

المجلس ليلًا.. وكان يلتئم عادة بأمر ملكي.

وعادت المركبتان الملكيتان إلى وندسور.. وسارت مركبة جوينبلان المذهبة إلى لندن في سرعة معتدلة لغرض مقصود.وصلت المركبة إلى (وستمنستر) مقر مجلس اللوردات في ذلك العهد وقت حلول الظلام.. ولما وقفت أمام الباب الخارجي نزل رئيس التشريفات والضابط حامل الوسادة. وقال الأول مخاطبًا جوينبلان:

– سيدي اللورد.. هذان من أندادك.. أرجو أن ترد تحيتهما من فخامتكم ألا تخلعوا القبعة.

تقدم رئيس التشريفات إلى جوينبلان وقال له:

– سيدي اللورد.. هذان من أندادك.. أرجو أن ترد تحيتهما كما يفعلان.. وكلاهما بارون.. وقد عهد إليهما رئيس المجلس أن يرافقاك إلى القاعة بصفة عريفين.. هما طاعنان في السن.. كليلا النظر.. وسيتوليان تقديمك إلى مجلس اللوردات.. والأول هو اللورد (فيتزوالتر) والثاني هو اللورد (اروندل).

ولما فرغ رئيس التشريفات من كلامه تقدم إلى النبيلين وقال:

– فيرمان كلانشارلي.. بارون كلانشارلي. بارون هنكرفيل. ماركيز كورليون.. يحيى فخامتكم!

رفع النبيلان قبعتيهما وبسطا ذراعيهما.. ففعل جوينبلان مثلهما.. ثم تقدم رئيس التشريفات والضابط جوينبلان. ووقف اللورد (فتزوالتر) عن يمينه، واللورد (اروندل) عن يساره. وسار الموكب في ممشى وقف فيه حرس فاخر الثياب كان يحييهم برفع السيوف، حتى وصلوا أخيرًا إلى بهو في نهايته باب ضخم مذهب وقف عنده حاجبان. ووضعت على مسافة من الباب منصة فوقها مقعد رحب جلس فيه اللورد وليام كوبر رئيس مجلس اللوردات ومستشار

الملكة الأول.

كان البهو مضاء بمصباح مدلى من السقف. وجلس عن يمين الرئيس (كاتب التاج)، وعن يساره (كاتب البرلمان)، وأمام كليهما سجل مفتوح ومحبرة.

ووقف خلف الكابتن ضابطان ويحمل أحدهما سيفًا، والثاني رداء النبلاء.. وهو من المخمل القرمزي المبطن بالحرير الأبيض، موشى فوق الكتفين بفراء مموه بالذهب.وكان هناك ضابط ثالث يحمل مجلدًا صغيرًا أحمر اللون يتضمن أسماء النبلاء، جرت التقاليد بإهدائه إلى العضو الجديد.

وقف النبيلان وبينهما جوينبلان أمام مقعد الرئيس. فرفعا قبعتيهما واقتدى بهما جوينبلان.

وحمل رئيس التشريفات الوسادة المخملية من يد الضابط، وركع أمام الرئيس، وقدم إليه العلبة السوداء ذات الشعار الملكي.

تناول الرئيس العلبة وأعطاها (لكاتب البرلمان) الذي حملها باحترام ثم فتحها.. وأخرج منها وثيقتين هما الكتاب الموجه إلى المجلس لضم العضو الجديد، والدعوة الرسمية الموجهة إلى المجلس لضم العضو الجديد، والدعوة الرسمية الموجهة إلى العضو نفسه.. وتلاهما باحترام.

ولما تمت تلاوة الرسالتين رفع الرئيس صوته قائلا: تمت تلاوة رسالة التاج.. لورد كلانشارلي.. هل تنبذون فخامتكم عبادة القديسين ومذهب التحول؟.

انحنى جوينبلان إيجابًا. فقال الرئيس:

– تم الاختيار.

وقال كاتب البرلمان:

– تم اختيار صاحب الفخامة.

واستطرد الرئيس:

–سيدي اللورد كلانشارلي.. يمكنك أن تأخذ مقعدك في صفوف المجلس.

فقال النبيلان:

– ليكن...

وتقدم الضابط حامل السيف وعلقه في وسط جوينبلان. وتلاه الضابط حامل الرداء القرمزي، فوضعه فوق كتفيه.. وعقد خيوطه حول عنقه.

وهكذا صار جوينبلان في زي النبلاء مثل زميليه الواقفين عن يمينه ويساره.

وهمس رئيس التشريفات في أذنه:

– أرجو عند دخول قاعة المجلس أن تنحنوا أمام العرش.

وفي أثناء ذلك أخذ كل من الكاتبين يكتب في مجلده، ولما فرغا من الكتابة حملا المجلدين إلى رئيس المجلس، فوقع باسميهما في كليهما. وعلى أثر ذلك نهض الرئيس وقال مخاطبًا جوينبلان:

– فيرمان لورد كلانشارلي. بارون كلانشارلي. بارون هنكر فيل ماركيز كورليون.. مرحبًا بك بين نبلاء بريطانيا العظمى.

لمس النبيلان كتف جوينبلان. فالتفت حوله. رأى الباب الضخم المذهب قد فتح على مصراعيه.. وهو باب مجلس اللوردات.. ومنذ ست وثلاثين ساعة فقط دخل جوينبلان باب سجن سوثوارك الحديدي.. وما أروع الصور التي تعاقبت بين المكانين.

تمت مراسم إدماج جوينبلان في عضوية مجلس اللوردات في ضوء يسير. ولم

يشأ اللورد وليم كوبر الرئيس أن يدقق كثيرًا في تقدير الظروف المتصلة بتشويه جوينبلان. وأبت عليه كرامة منصبه أن يقرر أن عضوًا في المجلس ليس وسيمًا جميلًا.. واقتنع بأن "وجه النبيل في لقبه"..

ولما رأى الرئيس أن وجه العضو الجديد قد يثير انفعال أعضاء المجلس عند دخوله، احتاط للأمر من قبل، وقرر استقبال اللورد فيرمان كلانشارلي في جلسة المساء. كما استخدم الحق المخول له بموجب القانون، وتولى بنفسه إتمام المراسم المتصلة بإدماج اللورد الجديد في العضوية.. وتم ذلك في وقت مبكر، حتى أن النبيل الجديد دخل قاعة المجلس قبل موعد انعقاده فعلا.

جلس جوينبلان في مكانه في نهاية الصف المخصص للبارونات، بين النبيلين الكهلين.. وهكذا كاد يحتجب عن العيان.

وأخذ الأعضاء يتوافدون جماعات وأفرادًا.. ولم يسبق أخطار أحد منهم بوصول العضو الجديد.. وراح كاتب البرلمان يتلو بصوت خافت وثائق عضويته بين ضوضاء الحديث الذي يتبادله الأعضاء عادة في أول الجلسة.. وأعلن الرئيس إدماجه في العضوية في صوت لم يلتفت إليه أحد في هذه الحالة السائدة.

وانتهى كل شيء.. وألفى جوينبلان نفسه نبيلًا بين عشية وضحاها. كان بالأمس مهرجًا.. أما الآن فهو نبيل.

استحال ضمير جوينبلان في هذه اللحظة مسرحًا لصراع عنيف فجائي بين البؤس الماضي والسلطان الحاضر.. وأخذت كلتا العاطفتين تستأثر به وتحاول أن تغمر تفكيره ووجدانه.

وكانت دهشة الأعضاء المتأخرين الذين تسامعوا حديثًا بالقصة لا حد لها.. وراحوا يتساءلون بلهفة: أين هو؟. وما شكله. ولكن لم يوفق أحد إلى تمييز

ملامح وجهه.. فقد جلس جوينبلان بين طائفة من النبلاء الكهول الذين جلسوا في أماكنهم جامدين لا يحفلون بما يدور حولهم من الأحاديث والقصص.

وكانت الأيدي تتداول صورة رسالة قيل أن الدوقة جوشيانا بعثت بها إلى شقيقتها الملكة ردًا على الأمر الذي تلقته منها بوجوب اقترانها باللورد فيرمان، وريث كلانشارلي الشرعي.. وهذا نص الرسالة:

"سيدي .. إن هذا التدبير يوافقني إلى حد أنني سأتخذ اللورد دافيد عشيقي: جوشيانا".

وسواء أكانت هذه الرسالة صحيحة أم مزيفة، فقد تداولتها الأيدي بحماس عظيم. وفجأة بدأ في جو القاعة ضوء ساطع.. فقد حمل بعض الحجاب أربعة شمعدانات وضعوها حول كرسي العرش فزادته بهاء وفخامة. ودخل رئيس التشريفات إلى القاعة حاملًا عصاه بيده، وصاح:

– فخامة مندوبي صاحبة الجلالة.

تلاشت ضوضاء المتحدثين في الحال، ودخل أحد الكتاب من الباب الكبير حاملًا وسادة عليها طائفة من الوثائق، هي مشروعات المراسيم المطلوب عرضها وإقرارها.. وجاء خلفه ثلاثة من الرجال في أردية النبلاء الأرجوانية، وقبعات ذات ريش أبيض.

كان هؤلاء الثلاثة هم مندوبو الملكة لدى المجلس، وتقدموا في القاعة حتى وصلوا إلى كرسي العرش، فانحنوا أمامه، ورفعوا قبعاتهم ثم أعادوها، وجلسوا في مقعد مستطيل مكسو بالمخمل القرمزي وضع قرب المنصة.

وعلى أثر ذلك فتحت الجلسة.. وبدأ المجلس في نظر المسائل المعروضة عليه.

زوبعة عنيفة

قال رئيس الجلسة يخاطب الأعضاء:

– حضرات السادة.. نظر المجلس في عدة جلسات سابقة في مشروع المرسوم الذي يقترح رفع مرتب حضرة صاحب السمو الأمير جورج قرين حضرة صاحبة الجلالة الملكة إلى مائة ألف جنية سنويًا، وتناقش الأعضاء في الموضوع، ثم أقفل باب المناقشة، وسيأخذ المجلس الآن الأصوات بالمناداة بالأسماء، وسينهض كل عضو عند المناداة باسمه ويجيب بكلمة (موافق) أو بكلمة (غير موافق)، ولكل عضو الحق في إبداء الأسباب. إذا رأى ذلك. أيها الكاتب، خذ الأصوات.

نهض كاتب الجلسة وبسط أمامه مجلدًا ضخمًا يتضمن بيانًا بأسماء أعضاء المجلس.. وبدأ مهمته.. فقال:

– سيدي اللورد جون بارون هارفي.

نهض كهل وقال: موافق.

سجل الكاتب صوت اللورد، واستمر في مناداة الأسماء وتسجيل موافقة الأعضاء، حتى وصل إلى اسم تردد قليلًا في النطق به، ثم رفع رأسه أخيرًا وقال: سيدي اللورد فيرمان كلانشارلي بارون كلانشارلي وهنكر فيل.

نهض جوينبلان وقال:

–غير موافق.

تطلعت جميع الأنظار إلى جوينبلان الذي بقى واقفًا في مكانه. فسقط

ضوء الشمعدانات على وجهه، فبدت تقاطيعه المروعة واضحة للعيان.

هتف الجميع من هذا الرجل؟

ونهض عضو متقدم في السن شهد كثيرًا من الحوادث، وقد ظهرت عليه دلائل الرعب وهتف:

– ما معنى هذا؟.. من جاء بهذا الرجل إلى المجلس؟ ليطرد في الحال!

ثم التفت إلى جوينبلان وقال له:

– من أنت؟. ومن أين جئت؟

أجاب جوينبلان:

– جئت من الأعماق.

في هذه اللحظة جاشت الانفعالات في صدر جوينبلان. وخنقته العبرات.. ومن سوء حظه أو وجهه أن بكاءه بدا للناظرين ضحكًا عنيفًا..

سرت العدوى في صفوف النبلاء سريان الكهرباء.. واستولت عليهم نوبة ضحك لا يغلب. فدوت ضحكاتهم في أرجاء المجلس.. وصحبتها عبارات السخرية اللاذعة.. نزلت على رأس جوينبلان كالصواعق.

واضطر الرئيس إلى فض الجلسة بسبب "ظروف شاذة"، إلى اليوم التالي، فانصرف الأعضاء إلى الخارج وهم يحيون كرسي العرش بالانحناء، وكانت أصداء ضحكهم تتجاوب في أروقة المجلس. وما هي إلا دقائق حتى غادروا الدار، ووقف جوينبلان وحده غارقًا في حلم رهيب.

أفاق جوينبلان فجأة من حلمه.. فألفى نفسه وحيدًا.. وقد رحل الأعضاء جميعا.. ولم يبق في القاعة سوى بعض الموظفين في انتظار رحيل فخامة اللورد،

وإطفاء الأنوار.

وضع جوينبلان قبعته على رأسه بحركة آلية.. واتجه إلى الباب، وفيما هو يمر حمل أحد الحجاب رداء النبلاء عن كتفيه وهو لا يكاد يحس بما يحدث له.

بين الأطلال

حينما دقت ساعة كنيسة (سانت بول) مؤذنة بانتصاف الليل، اجتاز رجل جسر لندن وأخذ يسير في أزقة (سوثوارك).

كانت الشوارع مطلقة مهجورة.. فقد جرت العادة في ذلك العهد بإطفاء المصابيح في الساعة الحادية عشرة.. وأخذ الرجل يسير بخطوات سريعة. كانت ملابسه تناقض السير في مثل هذا الوقت المتأخر الذي يأوي فيه الناس إلى بيوتهم. فقد كان يرتدي سترة موشاة بالحرير، ويتدلى من وسه سيف، ويحمل على رأسه قبعة ذات ريش أبيض. ولم يكن يرتدي عباءة..

وكلما مر يأخذ الحراس الليليين حسبه لوردا ذاهبًا إلى مراهنة ليلية فيفسح له الطريق بالاحترام اللائق. كان هذا الرجل هو جوينبلان. كان تحت تأثير كابوس رائع وأحس بأنه يكاد يختنق.. وبأنه في حاجة إلى الحياة من جديد اقترب جوينبلان من (ملعب تارنزو).. فأخذ يركض وراحت عيناه تشق الظلام باحثة عن مهبط آماله وأحلامه.. عن نوافذ الخان المضاءة. وصل قريبًا من الخان.. فلم ير ضوءًا.. ولم يشهد سوى كتلة سوداء.. وسرت في جسده رعدة.. على أنه قرر لنفسه أن الوقت متأخر. وأن أصحاب الخان آووا إلى مضاجعهم وأطفئوا الأنوار.. وأن عليه أن يسرع إلى الخان ويطرق الباب. فيفتحه نيكلس أو الغلام جوفكرم.

ركض جوينبلان.. ووصل إلى باب الخان لاهثًا.. لكنه قرر ألا يزعج معبودته ضيا، ولذلك قصد إلى نافذة الغرفة الصغيرة التي كان يعلم أن الغلام جوفكرم يرقد فيها.. فطرق نافذتها برفق.. وانتظر.

لم يجبه صوت! فأعاد الطرق مرة ثانية وثالثة. ولكن بلا فائدة. أحس بشيء من القلق. فاتجه إلى باب الخان وطرقه. فلم يجبه أحد ولم يتمالك أن سرت في جسده قشعريرة باردة. ونقر على الباب.. وطرقه.. ولطمه.. وركله بقدمه، وأخيرًا ألقى بجسده فوقه.

بقي الخان صامتًا. فأحس بأنه يكاد يفقد رأسه. وطرح الحذر جانبًا وصاح بأعلى صوته:

–نيكلس! جوفكوم!

وفي الوقت نفسه تطلع إلى النوافذ، فلم ير بصيصًا من النور؟ وبقى المكان ساكنًا لا يبدر من داخله أدنى صوت ولا حركة.

عاد إلى الباب يهزه هزًا عنيفًا ويصيح: ارسوس!. هومو!

لكن ما من مجيب.

حطم زجاج نافذة جوفكوم بيده، دون أن يبالي بتمزيق لحمها وجذب المزلاج وفتح المصراع. ولما رأى أن سيفه يعوقه جذبه بعنف وألقى به إلى الأرض غاضبًا.. ثم تسلق النافذة ودلف منها إلى الداخل رغم ضيقها.

رأى فراش جوفكوم خاليًا.. وكان المنزل غارقًا في الظلام.. وحدثته نفسه بشر مستطير.

اجتاز القاعة الأرضية وهو يصطدم بالمقاعد والموائد. ولما وصل إلى الباب المؤدي إلى الفناء ركله بقدمه ركلة قوية.. فانخلع القفل... وانفتح الباب..

ألقى نظرة على الفناء.. فإذا (المسرح الأخضر) قد اختفى من مكانه.

الثمرة

ترك جوينبلان الخان وأخذ يفتش في أرجاء ملعب تارنزو ولكن الخيام والمركبات أزيلت عن آخرها. ولم يجد أمامه سوى الوحشة والظلام.. ظهر أن رجال البوليس قاموا بحملة شاملة. وأن يد القانون الصارمة لم تبق شيئًا ولم ترحم أحدًا.

غادر جوينبلان الملعب. وأخذ يسير على غير هدى في الشوارع الضيقة الملتوية، متجها إلى نهر (التيمز). داعب نسيم رقيق وجهه، وسمع تلاطم الماء في النهر. ثم وصل إلى حاجز يمتد النهر خلفه عميقًا مظلمًا. ووقف جوينبلان عند الحاجز، واتكأ بمرفقيه فوقه، واعتمد رأسه بين راحتيه واستسلم للتفكير. وخيل إليه أنه يسمع خلفه زلزلة هي ضحك أعضاء مجلس اللوردات. ولما هرب من هذا الضحك وذهب إلى مأواه، كالطير الجريح يلتمس عشه، ولم يجد أمامه سوى الوحشة والظلام. بلغ جوينبلان تلك النهاية المظلمة. العدم. وباختفاء (المسرح الأخضر) تلاشت معه دنياه، وزال وجوده.

راح يسأل نفسه: أين ذهبوا، وماذا حدث؟.

واستسلم لتأملاته الأليمة.. وذهب به الفكر إلى كائن وضعته الأقدار في طريقه، يدعي باركلفدرو.. وتذكر عبارة صدرت عن هذا الرجل لم يلتفت إليها في حينها، لكنه رآها الآن مرتسمة أمامه بحروف من نار، فقد قال له باركلفدرو: "إن الأقدار لا تفتح بابا دون أن تغلق أمامه بابا آخر".

وقضي الأمر.. وانغمر في محيط اليأس والظلام. إن غيابه قد أحدث كارثة.. فهل كان هذا الغياب مرهونًا بإرادته؟ وهل كان يملك حرية التصرف في كل ما حدث؟

ألفى نفسه مهزومًا مغلوبًا على أمره. وهتف هاتف في أعماق نفسه أن المجتمع هو الزيف. أما الطبيعة فهي الأم الرءوم المجتمع هو عالم الجسد. أما الطبيعة فهي عالم الروح.

أين ذلك النجم الذي كان يتلألأ في سماء حياته. وا أسفاه! فقده إلى الأبد. كان في الجنة، فاستسلم للشيطان فخرج منها مطرودًا.

ما أبشع تلك الأطياف التي استهوته!. رأى جوشيانا مخلوقًا مخيفًا نصفه حيوان. ونصفه شيطان. رأي لقبه مسخًا وتشويها. رأى في الرداء القرمزي ثوبًا جنائزيًا. رأي القصور موبوءة. والهواء حولها مسمومًا يفسد العقول.

بدت أسمال المهرج في عينيه الآن جميلة رائعة. وا أسفاه! أين (المسرح الأخضر). والفقر، والطرب، وحياة التنقل العذبة الهنيئة؟

كان يلازم ضيا ملازمة الظل. كانت ضيا مثال الطهارة. وارسوس صورة الحكمة. كانوا يتنقلون من مكان إلى مكان. يستمدون القوة والتشدد من طرب الشعب البريء ومرحه الساذج.

خلع سترته وقبعته. ووضعهما فوق الحاجز.

ودس قدمه في ثغرة في الجدار قرب قاعدته. ورفع ركبتيه فوق الحاجز.

وأطبق يديه خلف ظهره وهو يغمغم. "هكذا أرادت الأقدار" وصوب نظره إلى مياه النهر.

وفجأة أحس بلسان يلعق يديه.

سرت في جسده رعدة، والتفت حوله. فإذا هومو خلفه.

رسول العناية

هتف جوينبلان: -هذا أنت.. يا ذئب؟؟

هز هومو ذنبه.. ولمعت عيناه في الظلام.. وأخذ يتطلع إلى جوينبلان... ثم راح يلعق يديه من جديد.

ظهر هومو في لحظة ضاع فيها الأمل.. وغلب اليأس.. فكان ظهوره كالهالة في الظلام.وفي أثناء ذلك استدار هومو وتقدم بضع خطوات.. ثم تطلع خلفه حتى رأى أن كان جوينبلان يتبعه.

والواقع أن جوينبلان تبعه فعلا.. فهز هومو ذنبه... واستأنف سيره إلى الأمام. وصل الذئب إلى حافة النهر يتبعه جوينبلان.. ووقف أخيرًا عند رصيف خشبي استقرت سفينة عند نهايته.. في مقدمتها نور ضئيل.

كانت سفينة هولاندية ذات سطح أمامي واخر خلفي، بينهما فراغ لتكديس البضائع، ويصل بينهما سلم عريض أما غرف الركاب فهي كائنة أسفل السطحين، لها أبواب تفتح في عنبر البضائع المكشوف وينفذ إليها الضوء من نوافذ زجاجية.. وفي كل سطح سارية.. ويشرف على السفينة ربان وبحاران وخادم.. وكان هيكل السفينة مطليًا باللون الأسود.. كتب اسمها (فوجرات-روتردام) بحروف بيضاء كانت ظاهرة في الظلام. كان سطح السفينة موازيًا للرصيف.. ينزل إليه الإنسان بدرجة، وكان يخيم فوقها السكون، ولا نبدو في أرجائها أدنى حركة... فقد تقرر أن تبحر ليلًا.. ولذلك دلف الركاب إلى غرفهم.. وانهمك رجال السفينة في تناول العشاء استعدادًا لساعة الرحيل القريبة.

ما كاد الذئب يصل إلى سطح السفينة الخلفي حتى أخذ يسير بخطوات بطيئة، بعد أن كان يسرع، وتبعه جوينبلان.

ولما وصل جوينبلان إلى السلم الموصل بين السطحين، رأى مصباحًا قرب سارية السفينة الأمامية.. ولمح في ضوئه هيكل جسم ضخم عرف فيه مركبة ارسوس العتيقة ذات العجلات الأربع.كانت المركبة مقيدة بحبال غليظة إلى السارية، وعلاها القدم في وضعها الحالي، فبدت كإنسان كسيح يدب إليه الفناء.كان المقدر أن يندفع جوينبلان إلى مهبط آماله وأحلامه.

كانت درجات المركبة مدلاة.. والباب مفتوحًا.. ولم يكن أحد بداخلها.. ورأى جوينبلان مرتبة مطروحة على الأرض عند قاعدة السارية خلف المركبة.. ولمح شبحًا ممددًا فوقها... سمع شخصًا يتحدث.. فاختبأ في ظل المركبة وأنصت.

كان المتكلم ارسوس.. لم يكن ذلك الصوت ذا الخشونة الظاهرية، والرقة الباطنية، الذي ألفه جوينبلان فيما مضى.. بل كان صوتًا يقطر حزنًا وكآبة وإعياء.

سمعه يقول ما يلي:

– رباه!. ماذا يكون مصيرنا؟ هل هي نائمة؟ نعم هي نائمة.. إنها في غيبوبة؟. لا. إن نبضها قوي. هي نائمة.. ماذا أفعل لكي أبعد الناس عن الدنو من هنا؟ أيها السادة.. إذا كان أحدكم على السطح، فأرجو ألا تحدثوا ضجة.. تعرفون أن معتل الصحة يحتاج إلى العناية.. هي محمومة كما ترون.. وأني وضعت هذه المرتبة هنا حتى يتسنى لها استنشاق الهواء العليل.. وقد هوت فوق المرتبة كأنما أغمى عليها. لكنها نائمة.. وأرجو ألا يوقظها أحد.

نحن مضحكون مساكين.. لكني أرجو شيئًا من الرحمة. وإذا لم يكن بد من دفع شيء حتى لا تحدثوا ضجة، فأنا على استعداد للدفع أشكركم يا سادتي. هل هنا أحد حقا؟. لا. وأنا أتكلم في الهواء.

إن جبينها يسيل عرقا.. لنذهب إلى أسفل السفينة.. أن الشقاء يزورنا من جديد. أننا ننحدر من جديد. أن يدا قوية قاهرة لا نراها ولكن نشعر بوطأتها قد لطمتنا وردتنا إلى مصيرنا المحتوم. ليكن.. سنحتمل كل شيء.. لكني لا أطيق أن أراها مريضة. ما العمل إذا أيقظها أحد فجأة؟... إن صدمة فجائية توقظها من نومها قد يكون فيها النهاية.. لكني أعتقد أن الجميع نيام في غرفهم. أين هومو؟ أني نسيت في اضطرابي أن أقيده.. إنني لم أره منذ ساعة. ربما ذهب للبحث عن عشائه على الشاطئ.. أرجو ألا يكون حدث له شيء هومو!. هومو! لطم هومو بذنبه سطح السفينة برفق فاطمأن ارسوس واستطرد:

– أنت هناك!. شكرًا لله! لو ضاع هومو لكانت ضربة يصعب احتمالها. إنها حركت ذراعيها. ربما كانت توشك أن تستيقظ. اسكت يا هومو. إن المد يرتفع. وسنبحر بعد قليل. إن الطقس معتدل. وسنسافر بسلام، إن وجهها شاحب، هذا ضعف عارض، لا. هو مورد، هل هي حمى؟ لا. هذا دليل الصحة، إني لا أرى بجلاء، إني لم أعد أميز الأشياء يا هومو، لابد لنا من استئناف الحياة من جديد، لابد من العمل والجد، لم يبق إلا أنا وأنت يا هومو، سنشتغل معا لأجلها، هي طفلتنا، آه! إن السفينة تتحرك! إننا نبتعد وداعًا يا لندن، بل إلى الشيطان أيتها المدينة اللعينة!

كان جوينبلان منهمكًا في الإصغاء إلى كلام ارسوس، ولم يشعر بشيء حينما انهمك رجال السفينة في رفع المرساة ونشر القلوع. وما هي إلا دقائق حتى أخذت تشق مياه النهر بسرعة في مياه المد المرتفعة.. وأخذت معالم لندن

تتلاشى خلفها في طيات الظلام والضباب.

استأنف ارسوس كلامه:

– إن العرق يسيل من راحتي يديها.. أخشى أن تلازمها الحمى.

ما كاد ارسوس يتم هذه الكلمات حتى جاوبه صوت عذب. هو صوت ضيا. تكلم ملاك جوينبلان. فخيل إليه كأن الصوت من عالم آخر قالت:

– إنه أحسن بالذهاب. لم يكن هذا العالم يليق له. لكن لابد من ذهابي.. أبي.. لست مريضة. إني سمعتك الآن تتكلم. أنا بخير، بكل خير، وكنت نائمة، أبي.. سأكون سعيدة.

قال ارسوس في صوت يشف عن الألم:

–ما معنى هذا الكلام يا ابنتي.

فأجابته: أبي. لا تتألم.

ساد صمت يسير، ثم سمع جوينبلان هذه الكلمات:

– إن جوينبلان ليس بقربي. الآن فقط شعرت بالعمى. لم أكن أعرف ما هو الليل. الليل هو الغياب والبعد.

سكت صوتها ثانية. ثم استطردت:

– كنت دائمًا أخاف أن يطير عني. كنت أحس بأنه ينتمي إلى السماء. وقد طار فجأة. وهذه نهاية طبيعية. إن الروح تحلق كالطير أن مقر الأرواح جميعا في السماء. وأعرف كيف أجد جوينبلان. ولن أضل طريقي. أبي، الطريق هناك، وستنضم إلينا فيما بعد. أنت وهومو.

أبي. تعلم أن كل شيء ينتهي بغياب جوينبلان. وحتى لو أحببت البقاء فلا

أستطيع! إذ لابد لي من التنفس، يجب ألا نطلب المحال.

كنت مع جوينبلان. فكان طبيعيًا أن أحيا. أما الآن وقد انتهى جوينبلان، فسأموت، الموت يسير. ولا مشقة فيه بتاتا. ومتى وصلنا إلى ما نسميه بالنجوم، تزوجنا، ولن نفترق بعد. وسيربط بيننا الحب إلى ما لا نهاية.

قال ارسوس:

–كفي. كفي. لا تؤذي نفسك.

قالت:

– أبي.. إذا عاش اثنان معا متلازمين منذ الطفولة. فيجب ألا تتغير حياتهما. وإلا فالموت خير لهما.

فقال ارسوس: كفى!. نامي!.

وساد السكون.. وفجأة هتف ارسوس:

– ماذا تفعلين. لم تنهضين؟. أرقدي.. أتوسل إليك!

ارتعد جوينبلان. ومد رأسه.

الفردوس الأرضي

رأي ضيا تنهض من فراشها. كانت ترتعد وتهتز من تأثير الحمى. سقط ضوء المصباح على محياها الجميل. فتموج شعرها المسدل فوق منكبيها. وبدا في عينيها نار وظلام.

كانت كروح واقفة في ضياء الفجر. رأي جوينبلان ارسوس يرفع يديه رعبًا وسمعه يهتف:

– ابنتي!. رباه! هي محمومة! إن هذيان الحمى هو أسوأ ما كنت أخافه. يجب ألا تصاب بأقل صدمة.. وإلا ماتت. لكن لا يحول دون جنونها سوى الصدمة المخوفة. الموت أو الجنون!. ما أرهب هذا الموقف!. رباه!. ماذا أفعل؟. ابنتي.. أرقدي كما كنت..

وتكلمت ضيا في صوت كأنه صادر من الأعماق:

– أخطأت يا أبي. لست محمومة. إني أسمع كل ما تقول بجلاء. قلت أن هناك جمهورًا كبيرًا ينتظر، وأن على أن أمثل دوري هذه الليلة. أنا على أتم استعداد، ترى أني متمالكة صوابي. لكني لا أدري ماذا أفعل، ما دمت أنا وجوينبلان ميتين على أني مع ذلك سأقوم بتمثيل دوري. هاأنذا. لكن جوينبلان لم يعد هنا.

– كفي يا ابنتي!. أفعلي كما آمرك! أرقدي!

– هو ليس هنا. ليس هنا. أواه!. ما أشد الظلام!

غمغم ارسوس:

–الظلامّ لأول مرة تنطق بهذه الكلمة!

تقدم جوينبلان بحذر وسكون إلى باب المركبة، فصعد الدرجات ومد يده فتناول ملابس التمثيل التي رآها معلقة قرب الباب في مسمار.

استطردت ضيا:

– ليس هذا صحيحًا. لست ميتة. ماذا كنت أقول؟ وا أسفاه! أنا حية. وهو ميت. أنا في الأرض. وهو في السماء. ذهب، وبقيت. لن أسمع صوته بعد، ولن أحس بقربه.

مدت يدها وأخذت تغرد أغانيها التي كانت تلقيها أثناء التمثيل..

وفجأة أحست برأس جوينبلان تحت يدها، فهتفت في صوت لا يوصف:

–جوينبلان!

ترنحت. فتلقاها جوينبلان بين ذراعيه وهتف ارسوس:

– حي!

قالت ضيا مرة ثانية:

– جوينبلان؟

ومست برأسها وجنته. وهمست في صوت متهافت:

– هبط إلي ثانية. شكرًا لك يا جوينبلان.

أجلسها فوق ركبته، وضمها إلى صدره. فأدارت محياها الصبوح إليه، وركزت فيه عينيها المفعمتين نورًا وظلامًا كأنما كانت تبصره، وقالت:

– هذا أنت..

غمرها جوينبلان بقبلاته وهي تنتحب. وراح يقول في عاصفة من الحزن والتأثر والجنون:

– نعم. أنا. جوينبلان؟ الذي أنت منه كالروح. أنا هنا. إني أضمك بين ذراعي. أنا حي أنا لك. أواه!. حينما أفكر في أنه كاد ينتهي كل شيء. ضيا. إننا نعيش. ضيا! اصفحي عني. أنا لك إلى الأبد، أصبت. إلمسي جبيني تأكدي أنني جوينبلان. ليتك كنت تعرفين. لكن لم يفرق بيننا شيء بعد الآن، أني أنهض من الجحيم. وارتقي إلى السماء. قلت إني هبطت. لا. بل صعدت. أنا معك ثانية إلى الأبد. معا!. من كان يصدق؟ انتهت متاعبنا.. ليس أمامنا سوى السعادة، سنجد سعادتنا، وسنغلق الباب في وجه الشقاء إلى الأبد.. سأحدثك بكل شيء. وستدهشين، أن السفينة أبحرت. ولن يوقفها أحد. نحن أحرار. سنذهب إلى هولندا. وسنتزوج. ولن أخاف من اكتساب قوتي. لم يعد هناك خوف. أني أعبدك.

غمغم ارسوس:

– هدئ نفسك!

تحير ارسوس، وذهل، وابتهج، وامتزج ابتسامة بدموعه وقال مناجيًا نفسه:

– أنا لا أفهم شيئًا! أنا مغفل غبي! إني رأيته ينقل إلى القبر. أني أضحك، وأبكي، كم أحبهما! هذا انفعال شديد، هذا ما كنت أخافه، جوينبلان، حاذر عليها.

وفيما كان ارسوس يناجي نفسه، هتف جوينبلان:

– ما أروع جمالك يا ضيا! لا أدري أين ذهب عقلي في الأيام القلائل الماضية؟ ليس في الدنيا سواك حقا، أني أراك من جديد، لكني لا أكاد أصدق

عيني، في هذه السفينة! لكن أخبريني كيف حدث هذا؟ إنهم طردوك! ما أبشع هذا!، آه! سأثأر لك، يا ضيا، سأحاسبهم على ما فعلوا، أنا من نبلاء إنجلترا.

أحس ارسوس كأنما انقضت عليه صاعقة. فتراجع إلى الخلف.. وتفرس في وجه جوينبلان. وقال:

– صحيح أنه لم يمت. لكن هل يمكن أن يكون فقد عقله؟

وأخذ ينصت إليه في ارتياب. واستطرد جوينبلان:

– اطمئني يا ضيا. سأتقدم بشكواي إلى مجلس اللوردات.

نظر إليه ارسوس ثانية. ثم لطم جبينه بأصبعه وقال:

– سيان عندي كل شيء. كن مجنونًا ما شئت يا جوينبلان. هذا حق لبني الإنسان. أما أنا، فإني سعيد. لكن كيف حدث كل هذا؟

استمرت السفينة تشق مياه النهر بسرعة. وأخذ الظلام يتكاثف وأقبلت سحب الضباب من جانب المحيط تملأ الأفق حتى حجبت النجوم، وغطت أديم السماء.

وما فتئ جوينبلان يضم ضيا إلى صدره وهو نصف جالس وراحا يتبادلان أعذب الأحاديث وأرق النداءات. وقال جوينبلان:

– إني وجدتك ثانية. إني أضمك إلى صدري. هذا صحيح أنت لي. ولست حالمًا. هل هذا ممكن؟. نعم. أني أستعيد الحياة من جديد. ليتك كنت تعرفين. أني صادفت كل ألوان المغامرات يا ضيا.

– جوينبلان!.. أحبك!

كان ارسوس سعيد كل السعادة وفجأة تخلصت ضيا من ذراعي جوينبلان

ونهضت. وضمت يديها إلى صدرها كأنما تحاول وقف خفقانه، وقالت:

– ماذا جرى لي؟ إن الفرح قاتل.. إن ظهورك يا جوينبلان قد وجه إلي ضربة من السعادة. إن الفرح الذي غمرت به نفسي قد أسكرني. غبت عني فأحسست بأني أموت. وقد أعدت إلى الحياة التي عادت تفارقني. وتورد محياها. ثم امتقع. ثم تورد ثانية. وهوت.

قال ارسوس: وا أسفاه!. إنك قتلتها.

بسط جوينبلان ذراعيه نحوها وهو يهتف مروعًا:

– ضيا!. ماذا جرى؟

فأجابت: لا شيء. أحبك.

ارتمت بين ذراعيه كجثة هامدة. وتدلت ذراعاها.

وأرقدها جوينبلان وارسوس فوق المرتبة فقالت في صوت خافت:

– لا أستطيع أن أتنفس وأنا نائمة.

فرفعاها وقال ارسوس:

– هات وسادة.

فأجابت:

– ولم.. عندي جوينبلان.

ووضعت رأسها على كتفه.. فأسندها وقد زاغت عيناه ألمًا وحزنًا.

قالت: ما أسعدني!

فتناول ارسوس يدها وتحسس نبضها.لم يقل شيئًا.. ولم يهز رأسه.. بل

اختلج جفناه بحركة سريعة عصبية كأنما يحتجز دموعه..

سأله جوينبلان:

-ماذا جرى؟..

ووضع ارسوس أذنه على قلب ضيا.. فكرر جوينبلان سؤاله وهو جازع من الجواب.. تطلع ارسوس إلى جوينبلان.. ثم إلى ضيا وتقلص وجهه.. ولم يجب.

انحنت ضيا.. واشتد شحوب لونها.. وأخذت تقبض على ثوبها بحركات عصبية.. وزفرت زفرة محزنة.. وغمغمت:

- أنا أعرف ما بي.. إني أموت..

نهض جوينبلان مروعًا.. وأمسكها ارسوس..

هتف جوينبلان كالمجنون:

- تموتين!.. لا.. لا يمكن! هذا محال!.. إن الأقدار لم تبلغ من القسوة هذا المبلغ.. ستعيشين يا ضيا.. هذا ألم عارض سيزول قريبًا.. تموتين!.. ماذا فعلت نحوك؟.. أن مجرد التفكير في هذا يفقدني صوابي.. لا حق لك في الذهاب.. هل ارتكبت جرمًا؟ إنك صفحت عني، لا تسلميني إلى اليأس، والجنون، والإجرام، والهلاك. ضيا. أني أتوسل إليك، إني أستحلفك لا تموتي!

وألقى بنفسه على قدميها وهو يشد شعر رأسه وقد تملكه ألم هائل وخنقته العبرات.وارتفع لون أحمر فوق شفتيها، فأسرع ارسوس ومسحه بثوبها قبل أن يراه جوينبلان. تناول جوينبلان يديها وراح يستعطفها بكلام مختلط:

- لن تموتي. لم تبق لي قوة لاحتمال هذه الضربة. وإذا لم يكن بد من

موتك فلنمت معا. لا يمكنك أن تفكري فيما يؤول إليه أمري إذا ذهبت يا ضيا! ليس لي في الحياة غيرك. قد مرت بي أشياء شاذة خارقة. وقد لا تصدقين أني تقلبت في الحياة كلها في ظرف ساعات. وقد وجدت شيئًا واحدًا وهو أنه ليس فيها شيء. إذا ذهبت لم يبق للحياة معنى. أشفقي علي. أني وجدتك لكي أحتفظ بك. رباه! ما أشد عذابي.

كانت هذه الكلمات تصدر منه حينا في رقه. وحينا في ثورة.. وكانت العبرات تخنقه والدموع تسيل من وجنتيه.

وأجابته ضيا في صوت خافت متقطع. وكانت تقف بين وقت آخر لالتقاط أنفاسها:

– وا أسفاه!. لم تبق فائدة يا عزيزي. إنك فعلت كل ما في وسعك منذ ساعة فقط كنت أريد أن أموت. أما الآن فلا. ما كان أسعدنا يا عزيزي جوينبلان! إن الله وضعني في طريقك وهو الذي تشاء عنايته أن يأخذني الآن إليه. سأذهب. هل ستتذكر (المسرح الأخضر) وضيا العمياء؟

هل تتذكر أغنيتي؟. لا تنس صوتي. وكيف كنت أقول لك: "إني أحبك". سأعود وأقول لك هذه الكلمات في نومك. نعم قد تلاقينا ثانية. ولكنه كان فرحًا مفاجئًا، وقد انتهى وقد كتب علينا أن أذهب أولًا..

وخفت صوتها. وغمغمت:

– جوينبلان. هل ستفكر في؟ أواه! أبقيني معك!

ثم قالت بعد سكوت:

– تعال إلى بأسرع ما يمكن. لن أكون سعيدة بدونك، حتى في السماء لا تتركني وحدي طويلًا يا جوينبلان. أواه! لا يمكن أن أتنفس، حبيبي! حبيبي!

حبيبي.

هتف جوينبلان: الرحمة!

غمغمت ضيا: الوداع!

لثم يديها البارزتين، وخيل إليه أنها كفت عن التنفس.

ثم نهضت مستندة إلى مرفقيها. وسطح في عينيها ضوء رائع وعلت شفتيها ابتسامة عذبة، وقالت في صوت جلي:

– النور! إني أرى.

ثم لفظت النفس الأخير. وهوت جامدة الحركة متصلبة الأطراف..

قال ارسوس: ماتت!

وأطرق الكهل المسكين برأسه كأنما حطمه اليأس. ودس وجهه في طيات الثوب الذي يحجب قدمي ضيا. وبقى في مكانه غائب الرشد.

نهض جوينبلان من مكانه وقد بدا مخيف الشكل. رفع عينيه وحدق في الظلام حوله. ثم بسط ذراعيه عاليًا وقال:

– إني آت!

وتقدم فوق سطح السفينة متجهًا إلى الحافة كأنما تجذبه قوة خفية كانت خطوات قليلة تفصله عن لجة المياه.سار بخطوات متباطئة رافعًا عينيه إلى السماء وذراعيه إلى أعلى وارتسمت فوق فمه ابتسامة كابتسامة ضيا.. تقدم في غير إسراع. وفي غير تردد.. وراح يقول:

– اطمئني.. سأتبعك، إني أفهم الإشارة التي تبدينها لي.

واستقرت عيناه في صفحة الماء وما زالت الابتسامة تظلل شفتيه.كانت

السماء حالكة السواد.. لا يبدو نجم في صفحتها.. لكنه رأى نجمًا معينًا.. وصل إلى حافة السفينة.. وقال:

– أنا آت!..

لم يكن للسفينة حاجز.. وسار خطوته الأخيرة. هوى في الماء.. فابتلعه، واختفى بهدوء وسكون، ولم يسمعه أو يره أحد، وما فتئ النهر يجري، والسفينة تسير.

وصلت السفينة إلى مياه البحر بعد قليل.

ولما عاد ارسوس إلى رشده لم يجد جوينبلان بقربه، بل رأى هومو عند حافة السفينة يزمجر في الظلام، ويتفرس في صفحة المياه.

الفهرس

الرواية والروائي ٥
قسوة البشر ١١
السفينة ١٤
ناقوس الهلاك ١٩
أمل غارب ٢٢
طفل في الظلام ٢٨
ضيافة الفيلسوف ٣٣
اليقظة ٤١
طبائع البشر ٤٤
باركلفدرو ٤٨
في الظلام ٥٣
الرخاء ٦٠
الخطيب ٦٢
الحقد ٦٦
أعراض الفساد ٧٢
الضابط الأسود ٧٦
قبو العذاب ٨٣
أصبع القدر ٩٤
حلم شيطاني يتحقق ١٠٢
ارسوس تحت المنظار ١١٠
تعقد الموقف ١١٥

التصفية ١٢١
امرأة هائلة ١٢٩
حواء ١٣١
مقابلة ١٣٩
في مجلس اللوردات ١٤٢
زوبعة عنيفة ١٤٨
بين الأطلال ١٥١
الثمرة ١٥٣
رسول العناية ١٥٥
الفردوس الأرضي ١٦٠